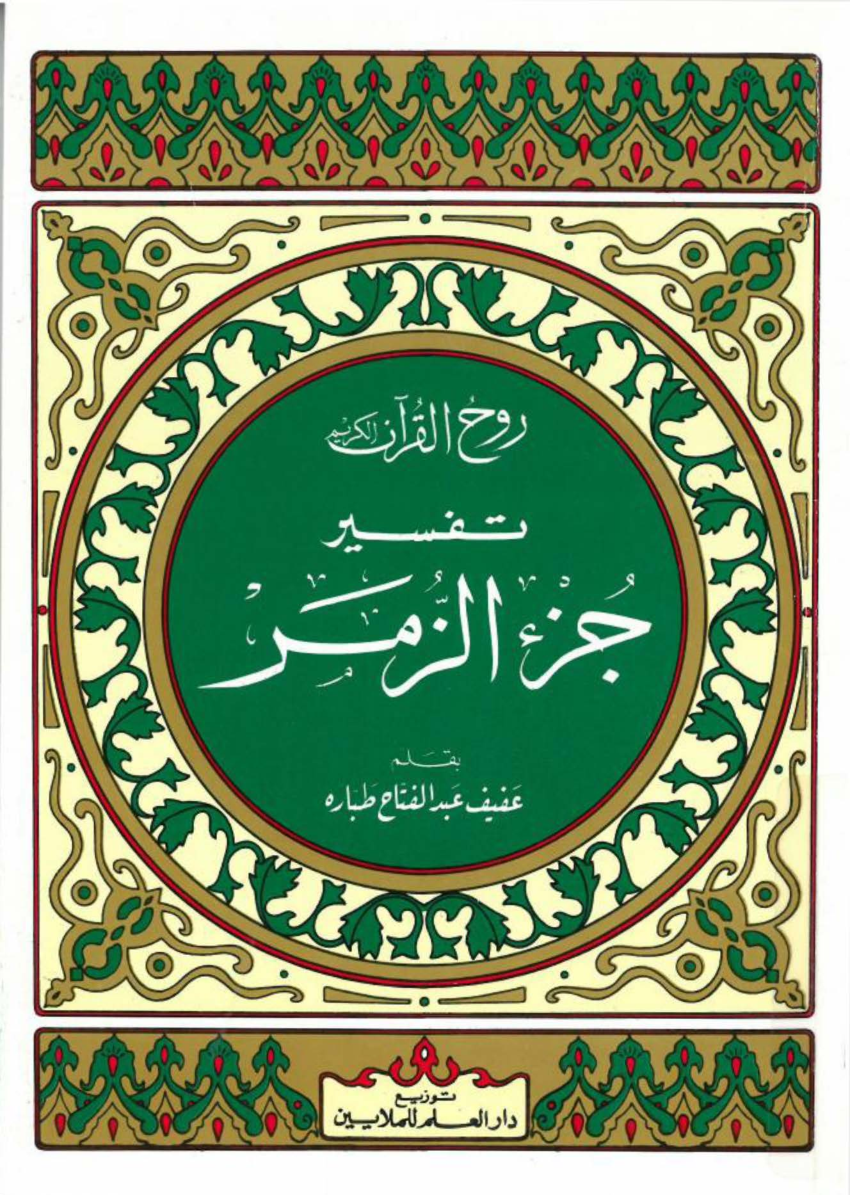


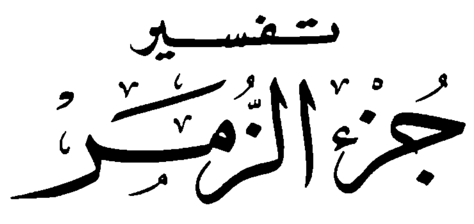
روح القرآن الكريم
تفسير
جزء الزمر
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسّر أجزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن أو الكلمة التي تستهل بها السورة . وهذا الجزء الرابع والعشرون يبتدىء بالآية ٣٢ من سورة الزمر وينتهي بالآية ٤٦ من سورة فصلت ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للمنفعة فلهذا أتممنا تفسير سورة الزمر وسورة فصلت وسمينا هذا الجزء « جزء الزمر » تجوزاً ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء .

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم « جزء عم » و « جزء تبارك » إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها . ونحن ارتأينا تسمية هذا الجزء باسم السورةالتي يبتدىء بها هذا الجزء .

روح القرآن الكريم



الجزء الرابع والعشرون

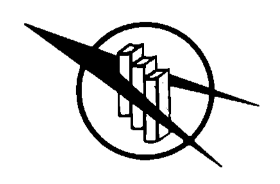
بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

ص. ب: ١٠٨٥ - بيروت
تلكس: ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٥٥ - ٨١٦٦٢٩
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الثانية

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩

كلمة شكر
أقدم شكري وامتناني للأساتذة :
القاضي الشيخ حسين غزال
الشيخ شريف سكر
مصطفى قصاص
على ما أبدوه لي من ملاحظات قيمة
راجياً من الله أن يجزيهم خير الجزاء
المؤلف

سُورَةُ الزُّمَر

تدعو هذه السورة في كثير من آياتها إلى إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان وأشباههما .

كما تتحدث السورة عن مظاهر قدرة الله في الطبيعة وفي خلق الإنسان والحيوان .

وتصور السورة طبيعة الإنسان في الشدة والنعمة ، وبالتالي توجهه نحو خالقه ، مع المقارنة بين المطيع لله العابد له ، وبين الجاحد له .

وتتحدث السورة عن مصير الإنسان في الآخرة حيث أعدّ الله للعصاة عذاب النار ، مع بيان مصير المتقين وما أعد الله لهم من ألوان النعيم .

وتتحدث السورة كذلك عن القرآن ومزاياه وتأثيره في قلوب الذين يخشون ربهم . وتبشر السورة العصاة بالمغفرة إذا رجعوا إلى ربهم بالتوبة والعمل الصالح مهما كثرت ذنوبهم .

وتختتم السورة ببيان عظمة الله الذي له القدرة التامة على التصرف في الكون حيث تطوى السماوات يوم القيامة بقدرته ، وحيث يأمر الله الملك إسرافيل بالنفخ في البوق فيصعق من في السموات ومن في الأرض من مخلوقات . ثم ينفخ في البوق نفخة أخرى فإذا الأموات يبعثون من قبورهم أحياء ، ثم يحكم الله بين الناس جميعاً بالعدل ، وعندها يساق الكافرون جماعات إلى عذاب النار ، ويساق المتقون إلى نعيم الجنة .

سميت هذه السورة بسورة الزمر لقوله تعالى فيها : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقوا رَبَّهُم إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً ﴾ كما تسمى هذه السورة سورة الغرف لقوله تعالى فيها : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ
سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ
يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ

شرح المفردات

فاعبُد الله مخلِصاً له الدِّين : فاعبد الله مفرداً له العبادة لا يشوبها شرك ولا رياء .

ألا لِلّه الدِّينُ الخالص : ألا لله العبادة والطاعة الخالصة له وحده .

أولياء : آلهة ونصراء .

زُلْفى : قربى .

لاصطفى : لاختار .

سبحانه : تنزه الله عن اتخاذ الشريك والولد .

يكوِّر الليل على النهار : التكوير هو اللف والجمع ، أي يلف الليل على النهار ويحجبه .

سخَّر الشمس والقمر : ذلّلهما لمنفعة الإنسان والحيوان .

كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ
رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا
رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ
مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا
إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا

شرح المفردات

أنزل : أنشأ وأحدث .

الأنعام : الإبل والبقر والغنم .

فأنّى تُصْرفون : فكيف تنصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره .

ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى : ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى بل كل يؤاخذ بذنبه .

ضُرّ : شدة من أي نوع كانت .

منيباً إليه : راجعاً إليه ، مطيعاً له ، مستغيثاً به .

خوّله : ملّكه ومنحه .

وجعل لله أنداداً : وجعل لله شركاء في العبادة مشابهين له ومساوين .

قانت : مطيع لله مصلٍّ له .

آناء الليل : ساعات الليل ، أوله ووسطه وآخره .

يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

يحذر الآخرة : يخاف عذاب الآخرة .

إنَّما يتذكّر أولو الألباب : إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة .

اتقوا ربكم : خافوا ربكم باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

يوفّى : يُعطون حقهم كاملاً .

بغير حساب : أي من الكثرة والعِظم بحيث لا يمكن حصره .

ظلل : طبقات من النار .

الطاغوت : الشيطان وكل معبود غير الله .

وأنابوا إلى الله : رجعوا إلى عبادته وحده تائبين من ذنوبهم .

سورة الزمر

ايضـــاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن منزل من عنده على رسوله محمد ﷺ :

﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (١ ، ٢) .

فالله سبحانه يقول : إن هذا الكتاب والمقصود به القرآن ، هو منزّل من عنده ، فهو سبحانه من صفاته : ﴿ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ أي القوي الغالب كل شيء ، الذي يفعل ما يشاء بحكمة وإتقان .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي أنزلنا إليك القرآن يا محمد مقروناً بالحق ، فكل ما في القرآن حق يجب الإيمان والعمل به .

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ والدين معناه هنا : الطاعة والعبادة[١] ، والمراد بإخلاص الطاعة والعبادة أن يكون الباعث إلى إتيانهما الانقياد والامتثال لأمر الله من غير أن يشوبهما شيء من الشرك والرياء .

والملفت للنظر أن الله كرّر لفظ إنزال القرآن من عنده : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ ﴾ للتأكيد على أن القرآن ليس من تأليف محمد كما كان يدّعي بعض الناس في زمن الرسول محمد ﷺ ، وكما يدّعي الآن كثير من أتباع الديانات الأخرى بدون علم ولا دراية ، بل عن تجنٍّ وافتراء بقصد الإساءة إلى نبوّة محمد ﷺ وطمسها ، ولكن أي

---

(١) ومن معاني الدين الجزاء والشريعة .

إنسان يتحلّى بالتفكير الحرّ المنصف ، ويلمّ بأصول اللغة العربية ، إذا درس القرآن بتجرّد عن التعصب والهوى ، وبعقل متفتح إلى المعرفة ، لا يلبث أن يقتنع بأن القرآن ليس من تأليف بشر ، بل هو بحق كتاب مُنْزَلٌ من عند الله .

فما يحتويه القرآن من صفات الله المتسمة بالكمال والقوة والجلال التي لا تليق إلّا بذاته تعالى ، وما فيه من أسرار أمور الآخرة وعدالة الحساب والجزاء ، وما يشتمل عليه من المبادىء السامية ، والتشريعات العادلة ، وما فيه من إشارات إلى حقائق الكون سمائه وأرضه ، وإنسانه وحيوانه ، وما فيه من قصص الأنبياء السابقين المشحونة بالدروس والعبر ، ثم تصحيحه لعقائد الأمم وأصحاب الديانات الأخرى ، كل ذلك وغيره يشهد بأن القرآن هو كلام الله وليس من كلام إنسان ، لأنه ليس في جميع الكتب الحاضرة كتاب يوازيه هداية وروعة ، وجلالاً وتأثيراً في النفس .

أضف إلى ذلك ما ينطوي عليه القرآن من بلاغة السبك وتناسق الألفاظ وروعة النغم الصوتي بما لم يستطع أحد من البلغاء مجاراة فصاحته إلى الآن .

ثم نعود إلى متابعة آيات هذه السورة فنراها تستنكر توجّه بعض الناس إلى غير الله في العبادة والطاعة :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾ والخالص والمخلص بمعنى واحد ، أي أن العبادة والطاعة الخالصة إنما تكون لله وحده دون أن

يكون معه أحد سواه ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ وأولياء جمع وليّ وهو الذي يهيئ للإنسان ما يبغيه من الخير وينفعه ، والمراد بالأولياء هنا : الأوثان والأصنام فقد عبدها المشركون من دون الله وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أي ما نعبد هؤلاء الأصنام إلاّ ليقربونا إلى الله قربة ويشفعوا لنا . فالمشركون إذا قيل لهم : من ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيُقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ فيقولون : نعبدها لتقرّبنا إلى الله وتشفع لنا .

فالمشركون ابتدعوا أسطورة بنوّة الملائكة لله سبحانه ، ثم صاغوا للملائكة تماثيل من وحي خيالهم يعبدونها من خلالها ، وأطلقوا عليها أسماء : اللات والعُزّى ومناة ، وغيرها ، وهي آلهة في نظرهم تشفع لهم عند الله .

واليوم نرى عند اتباع الأديان الأخرى عبادة الأنبياء والقديسين ، فقد صاغوا لها تماثيل ، وجعلوها في دور العبادة ، وعبدوها مع الله زاعمين أنها تشفع لهم وتقربهم إلى الله ، فما أشبه الجماعات الحاضرة بالجماعات السالفة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إن الله يحكم بين الخلائق فيما اختلفوا فيه من الدين ويجازي كل عامل بعمله ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ إن الله لا يرشد إلى الهداية من قَصْدُه الكذب والافتراء على الله ، كفّار : أي مبالغ في الكفر وذلك بعبادته للأصنام .

ثم يبين القرآن استحالة أن يكون لله ولد، فهو وحده خالق الكون:

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الوَاحِدُ الْقَهَّارُ . خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ألا

هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ ﴾ (٤ ، ٥) .

فالله سبحانه يقول : إنه لو شاء اتخاذ ولد ﴿ لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي لاختار من خلقه ما يشاء إذ يستحيل أن يكون له ولد بطريق التوالد المعروف ، ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ ﴾ أي إن الله منزه عن المثيل والشبيه فهو سبحانه قهر كل شيء بقدرته .

﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ﴾ فهو سبحانه خلق السموات والأرض وما فيهما من الموجودات والكائنات الحية بالحق والصواب ، ومن كان هذا خَلْقُهُ فحقه أن يُفرد بالعبادة لا أن يُشرك معه أحد من خلقه .

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ هذا النص القرآني يشير إلى ما كشف عن كروية الأرض ، والقرآن أول من أشار إلى ذلك منذ أربعة عشر قرناً حين كان هذا الأمر مجهولاً لدى البشر .

فإذا أخذنا مادة كوّر رأينا أنه يقال : كوّر الشيء يكوره تكويراً لفّه على شيء آخر مستدير ، فيقال كار العمامة على رأسه لفها وأدارها . فالأرض كروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكوّر يغمره الضوء فيكون نهاراً ، ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور ، وكلما دارت بدأ الليل يغمر سطح الأرض الذي كان عليه النهار ، وهذا السطح من الأرض مكوّر (أي في شكل دائري) فالنهار كان عليه مكوّراً ، والليل يتبعه مكوّراً كذلك ، وهكذا في حركة دائبة لاستمرار دوران الأرض ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ الذي هو نص صريح على كروية الأرض .

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي ذللهما الله

للسير على ما أراد . فالشمس تسير في مدارها ، وكذلك القمر إلى الوقت الذي حدده الله لفناء العالم ، إن منطق العقل لا يقبل أن تسير الشمس والقمر في مدارهما صدفة ـ كما يدعي الماديون ـ بلا مؤثر ولا خالق يدبرهما بمثل هذا النظام الدقيق على مدى ملايين السنين من عمر الكون .

﴿ ألا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ ﴾ صدرت هذه الجملة بحرف التنبيه : ألا ، للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها ، والمعنى : تنبهوا يا عباد الله فإنه سبحانه هو ﴿ العزيز ﴾ أي القوي الغالب الذي يعاجل بالعقوبة المبتعدين عن طاعته ، وهو سبحانه : ﴿ الغَفَّار ﴾ وهي صيغة مبالغة تدل على الغفران الذي ليس له حدود ، فهو سبحانه يغفر ذنوب عباده التائبين عن ذنوبهم .

وأمام عظمة خلق السموات والأرض يلفت القرآن الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلَهية المتمثلة في خلق الإنسان والأنعام :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَأَنْزَلَ لَكُم مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (٦) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي خلقكم الله أيها الناس من نفس واحدة وهي نفس آدم ، فَخَلْقُ الإنسان ابتداء وما فيه من أسرار الخِلْقَة وإبداعها يدل على عظمة الخالق ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي وخلق الله من نفس آدم حواء ، فخلق الذكر بجانب الأنثى للتكاثر ، وبقاء النوع الإنساني هو آية على عظمة الإبداع الإلَهي .

ووجود الذكر بجانب الأنثى للتناسل هو في الأنعام أيضاً ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ وأنزل بمعنى : أنشأ وجعل . ولكم : بمعنى

لمنفعتكم ، والثمانية أزواج هي : زوجان من الإبل ، وزوجان من البقر ، وزوجان من الضأن ، وزوجان من الماعز . فهذه الأنعام وما فيها من وجوه المنافع للإنسان من لحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها وغير ذلك تدل على وجود القصد والحكمة من خلقها ، فهي لم تخلق صدفة ، والصدفة لا تأتي مقصودة لمنفعة الإنسان ، كما أن وجود الأنثى بجانب الذكر لكل من هذه الأنعام للتوالد يدل على وجود المدبر الحكيم . هذا ومن المعروف بداهة أن كل أثر يدل على مؤثر ، فخلق هذه الأنعام يدل على خالق حكيم .

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى خلق الإنسان ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي يخلقكم الله أيها الناس في بطون أمهاتكم طوراً بعد طور ، فتكوين الإنسان بدءاً بالنطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظامٍ ، ثم يكسو الله العظام لحماً ، ثم ينشئه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وهذا الخلق للإنسان في بطن أمه يكون في ﴿ ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ وهذه الظلمات الثلاث هي :

الظلمة الأولى : ظلمة تجويف قناة الرحم :
(Obscurité de la cavité tubaire) حيث يبدأ أول التخلق بالتقاء الحيوان المنوي بالبويضة وهذه مرحلةالتلقيح .

الظلمة الثانية : هي ظلمة تجويف الرحم :
(Obscurité de la cavité uterine) عندما تتعلق البويضة الملقحة التي بدأت بالتكاثر والانقسام بالغشاء الداخلي للرحم .

الظلمة الثالثة : هي ظلمة السائل الأمنيوني :
(Obscurité de la liquide amniotique) الذي يسبح فيه الجنين

ويحده الغشاء الأمنيوني أو غشاء السلي[١] .

وقيل المراد بالظلمات الثلاث : المبيض ، وقناة فالوب ، والرحم .

والقرآن أومأ إلى هذه الحقيقة العلمية في زمن لم يكن قد نشأ فيه علم التشريح[٢] ، ولم يكن قد تطور إلى هذا الحد الذي عرفت فيه هذه الحقائق .

ثم عقب القرآن على خلق الإنسان بقوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أي هذا الذي خلق هذا الخلق أيها الناس هو ربكم له الملك ، ملك الدنيا والآخرة ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ لا ينبغي أن يكون معبود سواه ، ولا تصلح العبادة إلاّ له ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف تنصرف عقولكم عن رؤ ية هذه الحقيقة فتتوجهون إلى غيره كما فعل الذين عبدوا الأصنام ، أو تنكرون وجوده كما فعل الملاحدة .

وأمام عظمة الإبداع الإلّهي ونعمه على الإنسان يجعل القرآن الإنسان على عتبة الاختيار بين الاتجاه نحو الله وطاعته وما ينشأ عن ذلك من ثواب أو اختيار طريق الكفر وما يستتبع ذلك من عقاب في الآخرة :

﴿ إِنْ تَكْفُروا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٧) .

فالله سبحانه يقول : إن تكفروا أيها الناس فإن الله غني عن إيمانكم

---

(١) عن مجلة الفكر الإسلامي للدكتور عدنان الشريف .

(٢) علم التشريح يتطلب وجود مجهر وهذا لم يكتشفه الإنسان قبل القرن السابع عشر .

وعبادتكم إياه ولا يرضى لعباده الكفر به ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ وإن تؤمنوا بربكم وتطيعوه يرض شكركم له ، وهذا الشكر كناية عن إيمانهم بالله وطاعتهم إياه والثناء عليه .

ومما يجب التنبيه إليه أن رضاء الله على شكر الناس وعدم رضاه عنهم لكفرهم به لا يرجع إلى أن الله بحاجة إلى شكرهم أو يضره كفرهم فإن الله غني عن العالمين ، وإنما مردّ ذلك إلى أن الله لا يرضى لعباده الكفر من باب الرحمة بهم حتى لا يقعوا في الهلاك ، كما أنه يرضى لهم شكره وعبادته لأنهما السبب في نجاتهم وفوزهم .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي ولا تحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى ، ولا تؤاخذ نفس بذنب غيرها بل كل إنسان مجزيٌّ بعمله . هذا النص القرآني صريح في مبدأ شخصية العقوبة ، وهو المبدأ الذي لم يستقر في فقه القانون إلاّ في العصور الحديثة ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ ثم إلى الله مصيركم أيها الناس بعد وفاتكم ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيخبركم بما كنتم في الدنيا تعملونه من خير وشر فيجازيكم على كل ما فعلتموه ، فيجازي المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بما يستحقه من عقاب ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ إنه سبحانه يعلم ما تضمره صدوركم سرّاً ، فكيف بما تعملونه جهاراً .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان طبيعة بعض الناس نحو خالقهم في الرخاء والشدة مع التحذير من الإنزلاق في بؤرة الكفر :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إليه مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾(٨) .

فالله سبحانه يقول :﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ أي إذا أصاب الإنسان بلاء في جسده من مرض أو عاهة ، أو شدة في معيشته ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ أي استغاث بربه ، ورغب إليه في كشف ما نزل به من الضر والشدة ، راجعاً إليه وحده بالعبادة والطاعة ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ ثم إذا ملّكه ربه نعمة منه فكشف عنه ضره ، وأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء ، وبالفقر غنى ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى إزالته وكشفه من قبل ، أو نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ وجعل لله شركاء في العبادة وأمثالاً له وأشباهاً ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ليضل نفسه وغيره عن طريق الله ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ هذا القول فيه تهديد من الله ووعيد ، أي تمتع بهذه الحياة الفانية وأنت على هذا الكفر . ولفظ«قليلاً»يرمز إلى سرعة انقضاء العمر ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ إنك صائر من أهل النار الماكثين فيها أبداً .

فالإنسان بفطرته يلجأ إلى الله وحده عند اشتداد المرض وعند حلول الأخطار ، ولكن حين يذهب الضر عنه وينكشف البلاء ينسى تضرعه إلى ربه ويجعل لله شركاء من آلهة شتى يعبدها : إما أصناماً ، وإما مالاً ، وإما أهواء النفس ، وإما أشخاصاً أو حكاماً يجعلهم في مصاف الآلهة .

هذه الفطرة الإنسانية التي تلجأ إلى الله وحده عند اشتداد الضر من أقوى الدلائل على وجوب تخصيص الله بالعبادة وعدم الإشراك معه أحداً في عبادته .

وإلى جانب هذا الإنسان الذي يضل عن سبيل الله ويجعل له شركاء في العبادة يصوّر القرآن مسلك المؤمن بالله وحده المطيع له :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٩) .

أمّن : بمعنى : « أم من » وهو استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه ، والمعنى : هذا القانت لله أفضل أم الذي أشرك بالله ؟ والقانت لله : هو الذاكر لله سبحانه ، العابد له ، المطيع له بجميع ما أمر به ، ويقال للمصلي : قانت . وآناء الليل : هي ساعات الليل ، أوله ووسطه وآخره ﴿ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾ فالمؤمن يقنت ساجداً لله تارة وأحياناً قائماً في الصلاة ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ ﴾ أي يخاف عقاب الآخرة ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُون وَالَّذِين لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي قل يا محمد لقومك هل يتساوى العالم والجاهل ، وهل يتساوى الذين يعلمون بما في طاعتهم لربهم من الثواب ، وما في معصيتهم إياه من العقاب مع الذين لا يعلمون ذلك فهم غُفْل لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً ، ولا يخافون بِسيِّئها شراً .

وسياق هذه الآية يوحي بأن المقبلين على الله هم وحدهم العالمون ، وأن المبتعدين عن الله هم الجاهلون . فليس العالم هو الذي يجمع العلوم وحسب وإنما هو الذي يخاف الله ويرجو رحمته ، وان الجاهل هو الذي يسلك سبيلاً لا يوصل إلى الله ، وشتان بين فريق وفريق . ومما يؤيد ذلك ما جاء في القرآن ﴿ إنما يخشى اللَّهَ مِنْ عِبادِه العُلماءُ ﴾ فاطر : ٢٨ .

والآية السابقة يستفاد منها بيان فضيلة العلم وميزة العلماء على غيرهم من الجهلة .ثم يُعَقِّب الله على ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يتعظ بذلك أهل العقول السليمة الذين يخافون ربهم ويتقربون إليه .

وبعد ذلك يأتي هذا النداء الرباني بدعوة المؤمنين إلى التقوى واعداً إياهم سبحانه بالأجر الجزيل جزاء إحسانهم وصبرهم :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٠) .

ففي نداء الله للمؤمنين ﴿ يا عِبادِ ﴾ تشريف لهم حيث أضافهم إلى نفسه ، ووصفهم بالعبودية داعياً إياهم للاستجابة لأمره . ولقد أمرهم الله سبحانه بالتقوى ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُم ﴾ وهي طاعته واجتناب معاصيه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي للذين أحسنوا العمل في الدنيا بطاعة الله لهم حسنة في الآخرة عظيمة وهي الجنة ، وقد تكون الحسنة في الدنيا أيضاً كأن ينعم بالصحة والعافية والظفر بمبتغاه والحياة الطيبة .

أما قوله سبحانه : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهي إرشاد للمؤمنين بأنهم إذا اضطهدوا في بلدهم من جهة الكافرين ، أو خافوا على دينهم من الفتن فليهاجروا إلى دار الإيمان ، ولا يقيموا في أرض يُعْمَلُ فيها بالمعاصي ، ولا يستطيعون فيها إقامة شعائر الله ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ إنما يعطي الله أهل الصبر على ما لقوا في الدنيا من بلاء وأحزان أجرهم يوم القيامة بغير حساب بحيث يكون من الكثرة بما لا يمكن حصره ، وهذه بشرى للصابرين ، وبيان لمنزلتهم الكريمة عند الله ، وما ينتظرهم من حسن الجزاء ووافر الثواب .

ثم يأتي خطاب الله للنبي ﷺ بالسير على درب الإخلاص لله وحده ، وهذا الخطاب هو في الوقت ذاته خطاب لأمته ليسيروا على خطى نبيهم :

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهَ اعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ (١١ - ١٤) .

أي قل يا محمد للمشركين من قومك : إن الله أمرني ﴿ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ اي أن أعبده سبحانه مفرداً له الطاعة مخلصاً له العبادة وحده لا شريك له ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وأمرني الله بأن أكون أول من أسلم منكم فخضع له بالتوحيد ، وأخلص له العبادة ، وكذلك كان ، فإن محمداً ﷺ كان أول من خالف دين آبائه ونبذ الأصنام ، وآمن بالله ودعا الناس إلى عبادته سبحانه .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقل يا محمد لقومك المشركين إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من عبادته عذاب يوم القيامة-ذلك اليوم الذي يعظم هوله . فالله سبحانه أمر رسوله محمداً ﷺ أن يجري هذا الكلام على نفسه والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي ، لأنه عليه السلام مع جلالة قدره وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفاً حذراً من معصية الله فغيره بذلك أولى .

﴿ قُلِ اللَّهَ اعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ وقل يا محمد لقومك : إني أعبد الله وحده مبرئاً عبادتي من الشرك والرياء . هذا وإن تقديم لفظ الجلالة - الله - على الفعل (أعبد) يدل في اللغة على الحصر ، أي اني أحصر عبادتي بالله وحده لا أعبد أحداً سواه .

والملفت للنظر في الآيات التي سبقت أنه قد تردد لفظ (قل) مرات عديدة في خطاب القرآن للنبي ﷺ كما تردد هذا اللفظ كثيراً في القرآن ، وهو ما يشير إلى أن القرآن ليس من ذاتية محمد أو من تأليفه بل هو وحي إلهي فلو كان القرآن من تأليفه كما يدعي المفترون لما تردد هذا اللفظ على

لسانه ، لأن من المشاهد في صفات المفترين أن يسبغوا على أنفسهم صفة الجلال والعظمة . فلفظ (قل) يرمز إلى الطاعة والانقياد لأمر ما ، كما يرمز إلى أن القرآن منزل عليه من الله وهو مكلف بتبليغه إلى الناس .

وبعد أن أعلن النبي ﷺ منهجه الذي يتحدد بعبادة الله وحده ، تأتي الآيات التالية تحمل طابع التهديد والوعيد للمشركين الذين يتوجهون إلى غير الله في العبادة .

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِنْ دُونِهِ ، قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسرَانُ الْمبينُ . لَهُم مِنْ فَوْقِهِم ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (١٥ ، ١٦) .

فالله سبحانه يأمر رسوله أن يخاطب المشركين قائلاً : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِنْ دُونِهِ ﴾ هذا الخطاب للمشركين ليس المراد منه أمرهم بعبادة غير الله ، ولكن المراد منه التهديد والوعيد للمشركين حيث ظلوا على كفرهم ﴿ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي قل يا محمد إن الخاسرين الخسارة الكبرى هم الذين خسروا أنفسهم بوقوعهم في الهلاك وعذاب النار جزاء ضلالهم ، وخسروا أهليهم أيضاً ، لأنهم إن كانوا كافرين فمصيرهم مشترك في عذاب النار . أما إن كان أهلهم مؤمنين فقد خسروهم كذلك لأن هؤلاء في نعيم الله وأولئك في عذاب الله .﴿ أَلا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرانُ المبِينُ ﴾ أي ذلك هو الخسران الواضح الظاهر الذي ليس بعده خسران .

﴿ لَهُم مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ الظلل جمع ظُلَّة

وأصلها السحابة تظلّ ما تحتها وتسميتها ظلة تهكم بهم لأنها محرقة والظلة تقي من الحر . والمراد بالظلل هنا ما يعلوهم ويحيط بهم من نار جهنم فهي أطباق من النار تغشاهم وتحرقهم من فوقهم ومن تحتهم . إنه موقف يثير الرعب والهلع ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ذلك العذاب الهائل الذي يحذر الله به عباده ليتعدوا عن معاصي الله ويستجيبوا لأمره ونهيه ﴿ يَا عِبَادِي فَاتَّقُونِ ﴾ أي يا عبادي اتقوني بأداء ما فرضته عليكم واجتناب ما حرمته عليكم لتنجوا من عذابي وسخطي . وهذا الخطاب من الله إلى العباد وإضافتهم إليه سبحانه ـ يا عبادي ـ تنجلي فيه الرحمة والرأفة فما أحرى بعباد الله أن يستجيبوا لنداء ربهم الذي فيه فلاحهم .

وبعد أن ذكر الله سبحانه وعيده لعبدة الأصنام والأوثان ذكر بعد ذلك وعده الحسن لمن اجتنب عبادتها :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (١٧ ، ١٨) .

والطاغوت : قيل المراد به الأصنام والأوثان ، وقيل : هو الشيطان لأنه الداعي إلى عبادة الأصنام ، وقيل : الطاغوت كل ما يعبد ويطاع من دون الله . فالذين ﴿ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ أي ابتعدوا عنها وعن عبادتها ، وأعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ وتابوا إلى الله ورجعوا إلى الإقرار بتوحيده ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ لهم البشرى في الدنيا بنعيم الجنة في الآخرة ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أرشده وأهداه إلى الحق ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أولئك الذين وفقهم الله للرشاد والوصول إلى

الصواب ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ وأولئك هم أهل العقول الراجحة والبصائر النيِّرة .

فاتباع الأحسن في كل شيء يفتح باب الرقي على مصراعيه أمام الجماعة الإسلامية ، ويأخذ بيدهم إلى استحداث أرقى النظم المعيشية في حياتهم الدنيوية بجانب الأخذ بأحسن الأمور التي توصلهم إلى رضاء ربهم وسعادتهم في الآخرة .

فمبدأ الأخذ بالأحسن من الأقوال والأفعال يحمي الإنسان من الجمود والتحجر العقلي لأن بعض الناس يتخذ مما سمعه في أول عهده بالنظر ، وما قرأه في بعض ما كُتِب ممن يحسن الظن بهم سدوداً أمام كل ما يناقضها من الآراء والمذاهب الصحيحة ، فلهذا يظل على ضلاله لا يحيد عنه ، وكان الأجدر به ـ حسب التوجيه القرآني ـ أن يفسح صدره لمختلف الآراء ليوازن بينها ثم يختار أحسنها ، هذا إذا لم يرد في ذلك نص شرعي .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤)

شرح المفردات

حَقَّ عليه : وجب وثبت عليه .

فسلكه ينابيع : فأدخله في عيون الأرض .

يهيج : ييبس .

يجعله حطاماً : يصيّره فتاتاً متكسراً .

فويل : هلاك وشدة عذاب .

كتاباً متشابهاً : قرآناً تتشابه آياته في السَّبْك والفصاحة والهدى .

مَثَانِيَ : تتكرر فيه الأحكام والمواعظ والقصص بأساليب شتى .

تقشعرّ : تضطرب وترتعد .

تلين جلودهم : تسكن وتطمئن .

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾
فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ
ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ
عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ
عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى
عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ
بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾
وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

شرح المفردات

الخزي : الذل والهوان .

يتذكّرون : يتعظون .

شركاء مُتَشَاكِسُون : شركاء مختلفون متنازعون سيئة أخلاقهم .

سَلَماً لرجل : خالصاً لسيد واحد .

هل يستويان : هل يتماثلان ويتساويان .

مثوى : مأوى ومقام لهم .

أليس الله بِكاف عَبْده : الاستفهام تقريري ، اي أن الله حفظ رسوله محمداً من كل شر .

متابع سورة الزمر

وبعد أن أثنى الله على الذين أقروا بتوحيده واجتنبوا عبادة الطاغوت أخبر الله النبي ﷺ بأنه لا يقدر على إنقاذ الكافرين من عذاب الآخرة :

﴿ أَفَمَنْ[١] حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾(١٩) .

والمعنى : أأنت مالك أمر الناس ؟ فمن وجبت عليه كلمة العذاب بسبب كفره وعبادته للشيطان أفأنت تنقذ يا محمد من هو في النار ، لا لست على ذلك بقادر وليس أمر الناس بيدك بل بيد الله سبحانه .

هذه الآية عزاء لرسول الله ﷺ لما كان فيه من همّ ، فقد كان حريصاً على إيمان قومه متألماً من إعراضهم عن دعوته فأعلمه الله أن من وجبت عليه كلمة العذاب بسبب كفره فلا يقدر هو أن ينقذه من نار جهنم .

والمراد بكلمة العذاب ما جاء في قوله تعالى في حق الشيطان إبليس ومن اتبعه من الإنس والجن في إغوائه لهم ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنْكَ وَمن اتَّبَعك مِنْهُم أَجْمَعين ﴾ .

ويتابع القرآن فيذكر بعد ذلك أحوال المتقين في الآخرة وما هم فيه من نعيم :

﴿ لَكِنِ الذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ المِيعَادَ ﴾ (٢٠) .

أي لكن الذين اتقوا ربهم باستجابتهم إليه وخضوعهم لأمره واجتنابهم لما حرّم عليهم ، لهم في الجنة غرف من فوقها غرف مبنية بعضها فوق

(١) أفمن : الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء معطوفة على جملة محذوفة تقديرها : أأنت مالك أمر الناس .

بعض تجري من تحت أشجار بساتينها الأنهار ، هذا ما وعد الله به عباده المتقين والله لا يخلف وعده .

ثم ينتقل القرآن إلى لفت الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلٓهية المتمثلة في نظام الماء في الطبيعة حيث ينزل إلى الأرض ويخرج بسببه أنواع النبات :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثم يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢١) .

هذه الآية بيان للقدرة الإلٓهية الحكيمة ، كما أنها تصوير للحياة الدنيا في سرعة زوالها بما ذكر من أحوال الزرع ترغيباً في البُعْد عن زخارفها وزينتها ، وتحذيراً من الاغترار بها اغتراراً يصرف الإنسان عن واجباته نحو خالقه .

فالله يقول : ألم تر أيها الإنسان أن الله أنزل من السماء ماء ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي فأدخله في الأرض وأسكنه فيها ،ثم أجراه عيوناً في الأرض ثم أنبت بذلك الماء[1] ﴿ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أي زروعاً شتى لها ألوان مختلفة : من حمرة ، وصفرة ، وزرقة ، وخضرة ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ثم ييبس ذلك الزرع ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ فالزرع إذا يبس أصفر لونه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ﴾ أي فتاتاً متكسراً .

فهذا الماء النازل من السماء الذي هو مصدر الحياة على هذه الأرض

---

(١) دورة المياه في الطبيعة من السماء إلى الأرض حيث تسلك فيها عيوناً لم تعرف قبل أواسط القرن الثامن ، حيث أن الفكرة التي كانت سائدة قبل ذلك تقول : إن ماء العيون والأنهار يتفجر من باطن الأرض آتياً إليه من حفر وآبار في قيعان البحار .

ما هو وكيف نزل ؟ ما توصلنا إلى معرفته أنه ينشأ من اتحاد ذرتي إيدروجين بذرة أوكسجين تحت ظروف معينة . وهذا الماء يتبخّر من الأنهار والمحيطات تحت تأثير أشعة الشمس ثم ينزل إلى الأرض في فصول معينة ، ونزول الماء تعقبه الحياة النباتية التي هي قوام حياة الإنسان والحيوان .

هذا كله يدعونا إلى السؤال : من أوجد الماء ودورته في الطبيعة ؟

ومن أوجد هذه القوانين في نمو النبات وفي وراثة الصفات التي ورثها عن النبات الذي قبله ؟ ومن أين جاءت النباتات الأولى ، ونحن لا نستطيع أن نصل بعقولنا إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ، هذه التساؤلات تقودنا إلى أن التسليم بوجود الخالق يعتبر أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا .

وكما يُنْزِلُ الله من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ويُخرج به صنوف النبات ، كذلك يُنزل الوحي الإلّهي على البشر فتتلقاه النفوس المؤمنة بالقبول فتشرق قلوبهم وتتفتح بنور المعرفة والهداية بينما تتلقاه القلوب الجاحدة بالجفاء والإعراض وقساوة القلب كما تتلقى الصخرة الماء فلا يترتب عليها حياة ولا ينبت فيها نبات ، إقرأ قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ[1] شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

---

(١) أفمن : الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والفاء هي للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب ، والتقدير : أكل الناس سواء . ومن مبتدأ وخبره محذوف تقديره : كمن طبع الله على قلبه فلم يهتد .

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٢٢ ، ٢٣) .

والمعنى : أكل الناس سواء ؟ فمن وسَّع الله صدره للإسلام والنور والهدى فهو على هدى من ربه ، فهو ليس كالذي طبع الله على قلبه فلم يهتدِ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي فهلاك وعذاب للذين قست قلوبهم عند سماع ذكر الله الذي من حقه أن تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب ، وقد يراد بذكر الله : القرآن الذي أعرضوا عنه ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أولئك القساة القلوب في ضلال ظاهر بسبب إعراضهم عن الحق .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ فالله سبحانه وصف القرآن بأنه أحسن الحديث وهذا ما يتراءى من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، فمن جهة اللفظ فالقرآن هو من أفصح الكلام وأجزله وأبلغه ، أما من جهة المعنى فهو كتاب مشتمل على صفات الله وعلى التكاليف المتوجبة على الإنسان نحو ربه ، ومعرفة البعث والقيامة والحساب والجزاء ، ومآل الإنسان يوم القيامة إما إلى نعيم وإما إلى عذاب .

كما يشتمل القرآن على أخبار من مضوا من الأمم والرسل وما في حياتهم من دروس وَعِبَر ، بالإضافة إلى ما في القرآن من آداب وأخلاق وتشريعات تصلح لكل زمان ومكان ، كل ذلك يجعل من القرآن أحسن الحديث بالنسبة إلى غيره من الكتب .

ووصف الله القرآن أيضاً : ﴿ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ أي يشبه بعضه بعضاً ، ويصدّق بعضه بعضاً ، فليس فيه اختلاف ولا تناقض ، وهو كتاب متشابه في حسن النظم ، وجزالة اللفظ ، وجودة المعاني . ووصف القرآن بأنه : ﴿ مَثَانِيَ ﴾ جمع مثنى من التثنية بمعنى مردد ومكرر ، فقد تكررت فيه

القصص والفرائض والثواب والعقاب ، والأحكام ، والمواعظ ، والأوامر والنواهي بأساليب شتى ، كما أن القارىء يكرره في التلاوة فلا يمل منه ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ فالمؤمنون إذا سمعوا القرآن وما فيه من آيات الوعيد أخذتهم رعدة وقشعريرة في جلودهم خشية من الله سبحانه ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ثم تلين جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله لما وعد به المؤمنين من الثواب والجنة ، ولما يرجون ويؤملون من رحمة الله وفضله ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي ذلك القرآن سبب في هداية الخلق يهدي به الله من يشاء هدايته من خلقه بأن يوفقه سبحانه للسير بموجب أوامره ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي ومن يضلل الله من عباده بسبب إصراره على الكفر ، وعدم اعتباره واتعاظه بآيات الله فما له من هاد إلى طريق الله .

ثم يبين الله بعد ذلك ما أعد للكافرين من عذاب شديد يوم القيامة :

﴿ أَفَمَن[1] يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤ ـ ٢٦) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ والمعنى : هل كل الناس سواء ؟ هل مَثَلُ الكافر الذي يتقي بوجهه شدة عذاب النار يوم القيامة كمثل المؤمن الذي يدخل الجنة ؟ ولكن ما المراد

---

(١) أفمن : الهمزة للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف ، والفاء عاطفة عليه ، والتقدير أكل الناس سواء ، و « من » اسم موصول مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : كمن يدخل الجنة

باتقاء العذاب بالوجه في الآية القرآنية ؟ المراد منه أن الإنسان إذا صادفه خطر داهم استقبله بيديه وردّ به عن وجهه لأنه أعز أعضائه ، والكافر الذي يُلقى في النار تكون يداه مكبلتين بالأغلال فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلاّ بوجهه ، وهذا تصوير للموقف الهائل والعذاب الشديد الذي يصادف الكافر يوم القيامة ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي يُقال للكافرين ذوقوا جزاء ما كسبتم في دنياكم من أعمال سيئة ﴿ كَذَّبَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذب الكفار الذين عاشوا قبل كفار مكة رسل الله ولم يتبعوا ما جاءوهم به من الهدى ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرونَ ﴾ فأتاهم العذاب بغتة من حيث لم يخطر لهم ببال ، ومن الجهة التي توقعوا الأمن منها ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الخِزْيَ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فأذاقهم الله الذل والهوان في الدنيا بأنواع العذاب كخسف الأرض بهم ، والحروب المدمرة ، والأسر ، والإجلاء عن الأوطان وغير ذلك ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ ولعذاب يوم القيامة المعد لهم أكبر لشدته وديمومته ﴿ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كانوا يعلمون حقيقة ذلك لاعتبروا وأقلعوا عن تكذيبهم لرسل الله .

فهذا إنذار لكفار مكة بأنهم إذا لم يعودوا عن غيهم ويرجعوا عن تكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ فإنهم سيلقون نفس المصير الذي حل بالأمم السابقة جزاء تكذيبها لرسل الله .

وبعد أن بيّن القرآن ما أعد الله للكافرين من عذاب الدنيا والآخرة أشار إلى ما يحتويه القرآن من الأمثال التي فيها عظة وعبرة لكل معتبر :

﴿ وَلَقَدْ[١] ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ في هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ . قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢٧ ، ٢٨) .

---

(١) ولقد : اللام وقد للتوكيد وتقوية المعنى .

أي لقد بيَّنا وأوضحنا للناس في هذا القرآن الأفكار والعِبَر بضرب الأمثال[١] وذلك لأن المثل يقرب الموضوع إلى الأذهان ويجعل فهمه سهلًا ، والمراد بضرب الأمثال : اعتبار الشيء بغيره ، وتطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لعلهم يتعظون فيعملون بالحكمة المأخوذة من المثل .

ففي القرآن كثير من الأمثال سواء في الحِكَم أو في أحوال الأمم الغابرة للبيان والتوضيح وتقرير الحجة .

﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ فهذا القرآن نزل بلغة العرب لا اختلال فيه من أي وجه من الوجوه ولا تناقض ، وما ذلك إلاّ ليفهموا ما فيه من مواعظ ، ويعتبروا بما فيه من حكم وتقوم عليهم الحجة ، فالقرآن هو في أعلى درجات الفصاحة وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور ، أو بسورة منه ، ولكن لم يستطع أحد منهم مجاراته في بلاغته ، وهذا دليل واضح على كونه وحياً إلَهياً . ثم عقب القرآن على ذلك قوله : ﴿ لَعَلَّهُم يَتَّقُون ﴾ أي لعلهم على هدى هذه الدلائل المقنعة يتقون الكفر والضلال ويسيرون على هدى الله .

وبعد أن أشار الله سبحانه بأنه ضرب في القرآن من كل مثل للعظة قدم مثالاً للمؤمن الموحد لله ، وآخر للمشرك الذي يعدّد الآلهة :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٩) .

---

(١) المثل : هو الشيء الذي يقاس به فيجعل مثله ، ويأتي المثل بمعنى الشبه والعبرة ، وقد يكون المثل جملة من القول فيها عظة مقتطعة من كلام تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهة بحالة أخرى .

فالمشرك الذي يعبد الأصنام ويعدّد الألهة مثله كمثل رجل مملوك لشركاء ﴿ مُتَشَاكِسُون ﴾ أي متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم ، فهم يتجاذبونه[1] في حاجاتهم وهو حائر في أمره ، إذا هو أرضى أحدهم أغضب الباقين ، ولا يقدر أن يبلغ رضاهم أجمعين ، وإذا احتاج إليهم في أمر هام رده كل منهم إلى الأخرين ، فهذا الرجل في عذاب دائم وتعب مستمر .

أما الذي يعبد إلّهاً واحداً فقد مثلته الآية بمثل رجل مملوك لسيد واحد ﴿ سَلَماً لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصاً له وحده لا ينازعه فيه أحد . فهذا الإنسان المملوك لسيد واحد هو في راحة بال لأنه يعرف ما يرضي سيده وما يسخطه ، إذا أطاعه عرف سيده منه ذلك فكافأه على عمله ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، وإذا احتاج إلى أمر ما رجع إلى سيده وحده بالطلب . ويعقب القرآن على هذا المثال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ أي هل يتساوى هذان الرجلان صفة وشبهاً في حصول المنفعة وحسن العاقبة ، لا ، إنهما لا يتساويان ، فالمملوك لسيد واحد يستحق من معونة سيده وإحسانه ما لا يستحقه ذلك الرجل المملوك لشركاء متنازعون مختلفون .

فهذا المثل الذي أورده القرآن يرمي إلى بطلان وجود شركاء لله ، ويثبت أنه لا إلّه إلاّ هو الواحد الأحد ، ولما ثبت ذلك بالعقل السليم ثبت أن الحمد لله وحده لا لغيره ، ولهذا ختم الله الآية بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ نعم إن أكثر المشركين لا يعلمون أن الحمد يستحقه الله وحده .

فالمؤمن بالله وحده يقطع رحلة العمر على بصيرة وهدى ، فهو يعرف أن له رباً واحداً فيتوجه نحوه بالعبادة ، ويستمد منه العون ، إنه يعرف

---

(١) تجاذبوا الشيء : تنازعوه .

ما يرضي ربه فيفعله ، وما يغضبه فيتقيه ، بينما المشرك بالله الذي يعبد آلهة شتى يكون فكره موزعاً ، وعقله مشتتاً بينهم جميعاً لا يدري أي واحدٍ يُرضي ولا لأي منهم يتوجه بالعبادة .

ولما كان كثير من المشركين بالله لم ينتفعوا بهذا المثل ، بيّن القرآن بأن مصيرهم جميعاً هو الموت ، ثم يعرضون على ربهم وهناك يستبين المحق والمبطل ، والضال والمهتدي :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٠ ـ ٣٢) .

أي إنك يا محمد ، وإنكم أيها الناس ستموتون . والموت ليس نهاية المطاف ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ أي ثم إنكم جميعاً أيها الناس يوم القيامة تتنازعون عند ربكم ، مؤمنكم وكافركم ، وظالمكم ومظلومكم ، فيؤخذ للمظلوم منكم حقه من الظالم ، ويفصل الله بينكم بالحق . ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ بأن زعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ وكذب بالقرآن الذي أنزله الله على محمد ، وأنكر قول : لا إله إلاّ الله ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي أليس في النار مأوى ومسكن لمن كفر بالله ، وامتنع عن تصديق محمد ﷺ في ما يدعو إليه من الهدى . والاستفهام هنا للتقرير والإثبات ، والمعنى : يوجد في جهنم مكان للكافرين ، وأنتم تستحقون جهنم لأنكم كفرتم برسالة محمد ﷺ .

وبعد هذا الوعيد للمكذبين برسالة محمد ﷺ يأتي الثناء من الله على الذين صدَّقوا برسالة محمد ، وصدقوا بالقرآن الذي أنزله الله عليه :

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ . لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ المحسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣٣ ـ ٣٥) .

فالذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ ، والصدق الذي جاء به هو القرآن ودعوة لا إله إلا الله ، ويشمل من جاء بالصدق الأنبياء ، والذي صدّق به هم المؤمنون أتباعهم ﴿ أُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ ﴾ هؤلاء الذين اتقوا الله بتوحيده ، والبراءة من الأوثان واتخاذ شريك لله ، واجتنبوا معاصيه ، ﴿ لَهُمْ مَا يشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ لهم عند ربهم يوم القيامة ما تشتهيه أنفسهم من ألوان النعيم ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذا جزاء كل من أحسن في الدنيا فأطاع الله واتبع أمره ، وانتهى عما نهاه عنه ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذي عَمِلُوا ﴾ ليمحوَ الله عنهم أسوأ ما عملوا في الدنيا من الأعمال القبيحة فلا يعاقبهم عليها ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذي كَانوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي يجزيهم الله بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء ، أو بمعنى : يعطيهم جزاءهم بأحسن من الذي عملوه ، وذلك الجزاء هو الجنة .

وبعد أن بيَّن الله ثواب الذين صدقوا بالقرآن وساروا على منهجه أتبع ذلك بتطمين رسوله محمد ﷺ بحفظه من كل مكروه وأذى من قومه :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ[1] وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

---

(١) ﴿ أَلَيْسَ الله بكافٍ عبده ﴾ : أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي (ليس) فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها والكفاية هي الوقاية والحفظ ، و (عبده) مراد به رسول الله ﷺ . وهناك قراءة للقرآن (عباده) ويشمل ذلك الأنبياء والمؤمنون . فكل إنسان مؤمن بالله متبع طريق الإسلام قائم بحق العبودية لله وحده كفاه الله وحفظه ما أهمه في دنياه وحفظه من كل شر وأذى .

فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ (٣٦ ، ٣٧) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ والمعنى : الله وحده حافظ رسوله محمداً من كل شر . نعم والله لقد حفظ الله عبده محمداً من كل شر وأذى من قومه الذين رفضوا دعوته ، وأعزه الله ونصره عليهم ، ويعتبر هذا من الأنباء الغيبية التي تحققت مما يثبت أن القرآن كتاب الله حقاً لا ريب فيه ، هذا مع العلم أن هذه الآية نزلت بمكة حيث كان الإسلام ضعيفاً مضطهداً وأعداؤه كُثُر يحيطون به من كل جانب .

﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي يخوفونك يا محمد بالأصنام التي اتخذوها آلهة من غير الله أن تصيبك بأذى ، فقد رُوي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ لتكفُنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنَّك منهم خبل أو جنون .

فالتخويف بغير الله هو عبث وباطل ، لأن كل ما في الأرض من خلق الله لا يضرون الإنسان إلاّ بإذنه تعالى ، ومن أراد الله حفظه فليس هناك قوة في الأرض تطاله .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ومن يخذله الله فيضله عن طريق الحق وسبيل الرشد فما له سواه من مرشد ومسدّد إلى طريق الحق ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ ومن يوفقه الله للإيمان به والعمل بكتابه فما له من مُضِلّ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾ أليس الله هو القوي الغالب المنتقم من أعدائه الذي يكفي رسوله محمداً شر أعدائه ، وهذا وعيد للمشركين بالخسران والهزيمة ، ووعد للمؤمنين بالنصر ، وهذا ما تحقق بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ
(٣٨) قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ
فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣)
قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
(٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ
وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ

شرح المفردات

حَسْبِيَ الله : الله كافيني وكفيل بي .

المتوكلون : الذين يعتمدون على الله ويفوضون الأمر إليه .

مكانتكم : حالتكم المتمكنين منها .

عذاب مقيم : عذاب دائم لا يتغير ولا يتحول .

وما أنت عليهم بوكيل : ولست حفيظاً عليهم ولا مسؤولاً عن ضلالهم .

اشمأزت : انقبضت ونفرت .

فاطر السماوات والأرض : خالق السماوات والأرض .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

شرح المفردات

عالم الغيب والشهادة : العالم بما يغيب عن الأنظار وما يُشاهد .

حاق بهم : نزل بهم .

مسَّ الإنسان ضر : أصاب الإنسان شدة .

خوَّلناه : منحناه متفضلين عليه .

فأصابهم سيآت ما كسبوا : فأصابهم الله جزاء سيئاتهم التي اقترفوها .

وما هُمْ بمعجزين : وما هم بمفلتين من عذاب الله .

يَقْدِر : يضيق .

لا تقنطوا : لا تيأسوا .

تابع سورة الزمر

ثم ينتقل القرآن إلى تفنيد مزاعم المشركين بأن أصنامهم تنفع أو تضر :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أفرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتوَكَّلُ المتَوَكِّلُونَ ﴾ (٣٨) .

فالمشركون على عهد رسول الله ﷺ كانوا يقرون بأن الله خالق السماوات والأرض ولكنهم كانوا رغم ذلك يشركون بعبادة الله أصنامهم وأوثانهم مدّعين بأنها تنفع وتضر وتقربهم إلى الله زلفى .

والقرآن يقرر فساد عبادتهم للأصنام من جهتين :

الأولى : إذا كان الله هو خالق السماوات والأرض كما يعترفون : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ فهل بعد هذا الإقرار يستطيع أحد في هذا الكون أن يكشف ضراً أو يجلب نفعاً .

والثانية : أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر ، والنفع والضر ، وإذا كان الأمر كذلك كما يقر كل عاقل فإن عبادة الله هي المطلوبة ، وعبادة الأصنام هي العبادة الباطلة . فالله سبحانه يقول : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قل يا محمد للمشركين : أخبروني عن آلهتكم هذه التي تعبدونها متجاوزين في ذلك عبادة الله وحده ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ إن أرادني الله أن يصيبني بشدة من مرض أو فقر أو مصيبة هل تقدر آلهتكم على كشف ما أراده الله بي من الضر ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ أو أراد ربي أن يرحمني بسعة في

معيشتي ، وكثرة في مالي ، وعافية في بدني ، هل آلهتكم مانعاتٌ عني رحمته ، والقرآن ترك الجواب على ذلك لمعرفة السامع بحقيقة الواقع وهو أن هذه الآلهة لا تملك كشف الضر ، ومنع الخير ، وإذا تقرر ذلك ثبت بأن الله وحده الجدير بالعبادة . ثم يعقب الله على ذلك قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أي قل يا محمد إن الله كافيني وكفيل بي ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتَوَكِّلُونَ ﴾ وإلى الله فليفوض أمره من هو متوكل عليه ، وعليه فليعتمد لا على غيره .

وبعد إقامة الحجة على المشركين في بطلان عبادة الأصنام يأتي التهديد الرباني لمن يظل على كفره :

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (٣٩) .

فالله سبحانه يأمر رسوله محمداً بأن يخاطب المشركين متوعداً لهم : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي اعملوا على طريقتكم أو على حالكم التي أنتم عليها من العداوة لهذا الدين ﴿ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ إني عامل على طريقتي فسوف تعلمون عاقبة كفركم ووباله عليكم ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ فسوف تدركون من منا الذي يأتيه عذاب يهينه ويذله ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ وينزل عليه عذاب دائم لا يفارقه . وهذا وعد من الله بنصرة رسوله محمد ﷺ ، كما أنه وعيد للمشركين بالخزي والعذاب ، وقد تحقق هذا الوعد بعد فترة وجيزة بنصرة محمد ﷺ في معركة بدر على المشركين الذين قتل منهم الكثير وأسر بعضهم فذاقوا مرارة ذل الأسر .

ولما كان يعظم على رسول الله ويؤلمه إصرار المشركين على الكفر أخبره الله سبحانه بأنه لم يكلف إلاّ ببيان هدى الله ولم يوكل إليه أمر الإجبار

على ذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ (٤١) .

فالله أنزل على رسوله محمد القرآن لنفع الناس وهدايتهم ، وجعل إنزاله مقروناً بالحق ، فهو حق في منهجه وتشريعه ، فمن اهتدى بهذا القرآن فإنما يعود نفع ذلك عليه ، ومن ضل عن هدي القرآن فإنما ضلاله يعود عليه بالخسران ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وما أنت يا محمد بحفيظ تحفظ على قومك أعمالهم ، ولا أنت بمسؤول عن أمرهم ، وإنما عليك بلاغ شرع الله ، وعلى الله مجازاة من أعرض عنه .

ثم يعرض القرآن بعض مظاهر القدرة الإلّهية التي تحيي وتميت والتي هي أحق بالعبادة من أصنامهم التي لا تملك موتاً ولا حياة :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤٢) .

فالله سبحانه ﴿ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي يقبض أرواحها حين انقضاء آجالها ويقطع صلتها بالجسد ظاهراً وباطناً ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ كما يتوفى الله الأنفس حين تنام فيحول بينها وبين التصرف في الجسد مع بقاء الروح متصلة بالجسد . فالله شبّه النائمين بالموتى حيث يفقد الإنسان الإحساس بما حوله كما أن الموتى كذلك ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ فيمسك الله الأرواح التي قضى في الأزل عليها الموت في الوقت المحدد لها ، ولا يردها إلى أبدانها بل يحبسها عنده ﴿ وَيُرْسِلُ

الْأُخْرَى ﴾ ويرسل الأنفس النائمة إلى أبـدانها فتعود إلى إحساسها السـابق ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلى الوقت الذي حدد لانتهاء عمرها وهو وقت الموت ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إن في قبض الله نفس النائم والميت ، وإرجاع النائم إلى إحساسه السابق لعبرة وعظة لمن يعتقد بأن الله يحيي من يشاء ، ويميت من يشاء .

فالموت هو السلطان المسلط على البشر كافّة والأحياء كافّة ، وكل المحاولات التي أُجريت في سبيل تجنب الموت باءت بالفشل ، فالله سبحانه قهر العباد بالموت ، والموت والحياة هما من خلق الله كما جاء في القرآن : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الملك : ٢ .

والنوم هو آية من آيات القدرة الإلّهية ، ودليل على ضعف الإنسان ، وقد جعل الله النوم ليسترجع فيه الإنسان نشاطه الذي هدره في يومه ، فالموت والنوم من جنس واحد من حيث غيبوبة الإنسان عما حوله ، إلّا أن الموت مفارقة الروح للجسد وانقطاع تام عن الحياة ، بينما في النوم تستمر معه حياة الإنسان ولكنه يكون في غيبوبة موقتة عما حوله .

ثم ينتقل القرآن إلى ذم المشركين في اتخاذهم أصنامهم شفعاء لهم عند الله :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ . قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤٣ ، ٤٤) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أي بل اتخذ المشركون من غير الله وبدون إذنه شفعاء لهم عند الله ، وهي أصنامهم التي

يعبدونها ﴿ قُلْ أَوَلَوْ[1] كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي قل لهم يا محمد : أتشفع أصنامكم ولو كانت لا تملك شيئاً من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ، بل هي جمادات فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ قل لهم يا محمد إن الشفاعة لله وحده ، ولا تنفع الشفاعة عند الله إلاّ لمن رضي عنه وأذن له ، جاء في القرآن : ﴿ مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ ﴾ البقرة : ٢٢٥ . ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتَضَى[2] ﴾ الأنبياء : ٢٨ .

وبعد تقرير أن الشفاعة لله جميعاً يقول القرآن : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي لله سلطان السماوات والأرض وملكها ، وما تعبدون أيها المشركون من غير الله فهو ملك له فاعبدوا المالك لا المملوك ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ثم إلى الله مصيركم بعد الموت وهو معاقبكم على إشراككم به .

فالعرب قبل الإسلام كانوا يعتبرون الأصنام من جملة الشفعاء التي تشفع لهم عند الله وكانوا يتوجهون إليها بالعبادة .

والشفاعة عقيدة عند كثير من أتباع الأديان حيث يتوجهون إلى القديسين والأولياء فصاغوا لهم تماثيل وقدموا لهم النذور والقرابين لتكون شفيعة لأصحابها في استجابة مطالبهم .

أما عقيدة الإسلام فهي العقيدة الصحيحة التي تقبلها الفطرة الإنسانية وتحول بين كل الخرافات والأساطير التي دخلت على العقل البشري ،

---

(١) أوَ : الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للعطف على محذوف تقديره : أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأمر . .

(٢) ارتضى : أي لمن رضي الله عنه .

فخالق الكون هو الله سبحانه وحده ، والشفاعة جميعاً ملك له ، ولا تكون الشفاعة لأحد من خلقه إلاّ من بعد إذن له ، وبما أن إذن الله غير معروف لأحد من الخلق فبهذا قطع القرآن السبيل على الذين يتوجهون إلى غير الله بالعبادة رجاء الشفاعة منهم .

وبعد أن بين القرآن بطلان شفاعة الأصنام وصف بعد ذلك مشاعر المشركين إزاء الدعوة للإيمان والخضوع واللجوء إلى الله وحده :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تحكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ في مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤٥ ، ٤٦) .

فإذا ذُكِرَ الله وحده بأنه لا إله إلا هو لا شريك له ظهرت آثار النفرة والانقباض في قلوب المشركين ووجوههم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والاستبشار عليهم ، وهذا يدل على فرط جهالتهم وحمقهم . وهذه سمة نفسية تتكرر في شتى البلاد وعلى مختلف الأزمان فمن الناس من تشمئز قلوبهم كلما دعوا إلى عبادة الله وحده وإلى العمل بشريعته ، ولكن إذا ذكرت الأنظمة المادية الملحدة هشوا لذكرها واستبشروا .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي قل لهم يا محمد : يا ألله يا خالق السماوات والأرض و ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي تعلم ما يغيب عن أنظار العباد وما يشاهدونه ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أنت يا رب تحكم بين عبادك فتفصل بينهم بالحق يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه من أمور الدين .

وتتابع الآيات تهديدها للمشركين متوعدة إياهم بعذاب يفوق الوصف في الآخرة إذا ظلوا على ضلالهم :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَبَدا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ ﴾ (٤٧ ، ٤٨) .

أي لو أن هؤلاء المشركين ملكوا كل ما في الأرض من الأموال ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ وملكوا مثله معه ﴿ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد يوم القيامة ﴿ وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي وظهر لهم من عذاب الله الذي أعده لهم ما لم يكن في حسبانهم ، وهذا غاية في الوعيد لهم .

فالمشركون كانوا في غفلة من عذاب الآخرة فإذا رأوا ذلك العذاب وجدوا فيه ما لم يخطر ببالهم ، أو أنهم كانوا يرجون القربى من الله بعبادة الأصنام فلما عوقبوا عليها بدا لهم ما لم يكن في حسبانهم . ثم يضيف القرآن قوله : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ وظهر لهم يوم القيامة سوء عملهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ ﴾ وأحاط ونزل بهم من العذاب ما كانوا به يستهزئون من دعوة الإسلام .

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان طبيعة الإنسان حيال خالقه عند الشدة والنعمة :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ . قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٤٩ ـ ٥١) .

فالله سبحانه يقول : فإذا أصاب الإنسان بؤس وشدة وسوء حال دعانا مستغيثاً بنا ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا ﴾ ثم إذا أعطيناه فرجاً مما هو فيه من الضر بأن أبدلناه بالضر رخاءً وسعةً في المال ، وبالسقم صحةً وعافيةً ﴿ قَالَ: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ قال : إنما أُعطيت ذلك على علم من الله بأني أهل لرضاه بعملي عنده واستحقاقي له ، أو بمعنى : على علم عندي بوجوه المكاسب وبما أنفقت من جهد ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ليس الأمر كما يظن ويزعم ، بل أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبر مبلغ إيمانه بطاعة ربه أو معصيته ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون أن النِّعم هي اختبار لهم من الله ليُظهر حقيقةَ إيمانهم ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قد قال هذه المقالة كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ والذين كفروا بالله يا محمد من قومك ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ سيصيبهم جزاء كفرهم كما أصاب الذين من قبلهم ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ وما هم بناجين من عقاب الله .

فالفطرة الإنسانية بطبيعتها تلجأ إلى الله وحده عند الشدة ، هذه الفطرة التي جُبل عليها البشر جميعاً هي من أكبر الدلائل على وجود الخالق ، فالإنسان مهما تبجح بقوته فإنه سيصل إلى موقف يرى فيه عجزه وضعفه بادياً للعيان ، ويعلم أن فوق قدرته يداً أقوى وأقدر ، ففي مواقف المرض الشديد ، أو عند حلول الكوارث الطبيعية ترى الإنسان يلجأ إلى الله وحده يستمد منه العون ويطلب منه كشف البلاء ، ولكن عند حلول النعمة هناك نفوس تنسى ما كان في فطرتها من اللجوء إلى الله وحده في الشدة ، فتجعل لها ملجأ غير الله ، إما أشخاصاً تظن أن بيدهم النفع ، وإما مالاً يرد عنهم مصائب الدهر ، وإما أصناماً من اختراع أوهامهم تظن أنها تذود عنهم .

ويتابع القرآن فيبين بأن أرزاق العباد هي بيد الله يوسعها على من يشاء ويقترها على آخرين :

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) .

أي أو لم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ ﴾ ويضيقه على من يشاء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إن في توسيع الله الرزق لمن يشاء وتقتيره على من أراد لدلالات وحججاً لقوم يصدقون بالحق ويقرون بأن الرازق والمانع هو الله وحده دون سواه .

هذه الحقيقة نراها بادية للعيان عند التأمل في أحوال الناس المعيشية ، فكم من الناس على حظ وافر من الذكاء والعلم والنشاط نرى أرزاقهم في حدود معينة لا يتجاوزونها ، بينما هناك أناس دونهم في الذكاء والعلم نراهم وصلوا إلى مرتبة عالية من الغنى والثراء بعد أن كانوا فقراء لا يملكون شيئاً بفضل ظروف معينة لم تكن في الحسبان ، وهذا يدل على أن إرادة الله هي التي قسمت الأرزاق بين العباد لحكمة يريدها سبحانه في خلقه .

وبعد أن بينت الآيات السابقة ما أعد الله للكافرين من العذاب يوم القيامة تأتي الآية التالية مبينة كمال رحمة الله وفضله على من تاب عن كفره وأقلع عن ذنوبه :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِين أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ [1]﴾ (٥٣) .

---

(١) جاء في أسباب نزول هذه الآية ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة.فنزلت هذه الآية وغيرها .

أي قل ـ يا محمد ـ مبلغاً عن ربك : يا عبادي الذين أكثروا من ارتكاب المعاصي ﴿ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾[1] لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿ إنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ إن الله يغفر الذنوب لمن تاب ورجع إليه بالطاعة وإن كثرت ذنوبه ﴿ إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ هذه الجملة مؤكدة بـ « إن » وضمير الفصل « هو » للإشارة إلى أنه تعالى من أخص صفاته الغفران والرحمة . والمراد بمغفرة الذنوب عدم المؤاخذة بها ومحوها من الصحائف التي تكتبها الملائكة وصون مقترفها من العذاب .

أما من مات مسلماً ولم يتب من ذنوبه فأمره مفوض إلى ربه إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه بقدر جرمه ، وأما من مات مشركاً بالله ولم يتب من شركه قبل وفاته فلا يغفر الله له لقوله تعالى : ﴿ إنَّ الله لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ . (النساء : ٤٨)

وإن تصريح القرآن بأن الله يغفر الذنوب جميعاً هو عنصر فعال في سلامة النفس وصحتها ، فقد أثبت علم النفس أن كثيراً من مشاكلنا النفسية وأمراضنا العصبية ناشئة عن أمراض الضمير ، تحدث كوسيلة للهروب من تعذيب النفس أو تأنيبها ، فالذي يعلم أنه يناله الصفح من الله إذا تاب من ذنوبه لا ريب أن ذلك ينزع عنه الشعور بالإثم ويضفي عليه الطمأنينة التي هي المدخل إلى الصحة النفسية .

أما الذي يعلم أن ذنوبه ستظل معلقة به لا خلاص له منها ولا غفران فإن ذلك يكون له عاملاً من عوامل اضطراب النفس ، ومعاناة آلام الشعور بالإثم .

---

(١) النهي عن القنوط من رحمة الله يفهم منه الأمر بالرجاء برحمة الله . ولهذا يرى بعض العلماء أن هذه الآية هي أرجى آية في كتاب الله .

وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

شرح المفردات

وأنيبوا إلى ربكم : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

أسلموا له : انقادوا واخضعوا له .

بغتة : فجأة .

يا حسرتا : يا ندامتي ويا حزني .

فَرَّطْتُ : قصرت .

في جَنْب الله : في طاعة الله وأمره .

كرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

مثوى : مأوى ومقام .

بمفازتهم : بفوزهم وظفرهم بالبغية .

وهو على كل شيء وكيل : وهو القائم بحفظ كل شيء الكفيل بأرزاق العباد .

وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ
﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا
قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ
مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ
فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا
وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ

شـرح المفـردات

له مَقاليدُ السموات والأرض : له مفاتيحها وخزائنها .

لَيَحبطنَّ عملك : ليبطلن عملك .

نُفِخَ في الصور : نفخ الملك إسرافيل في البوق .

فصعق : فمات .

قبضته : في ملكه ومقدوره وتصرفه .

مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

شرح المفردات

زُمَراً : مفردها زُمرة وهي الطائفة .

حقَّت : وجبت وثبتت .

طِبْتُم : طهرتم من دنس المعاصي .

نتبوأ : ننزل .

حافِّين : يطوفون او يحدقون[1] .

تابع سورة الزُّمَر

فالله سبحانه يقول : ﴿ وَأَنيبُوا إِلَى رَبِّكُم ﴾ والإنابة هي الرجوع إلى الله بالتوبة مع الالتزام بطاعته ، ويقول سبحانه : ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي انقادوا لأمر الله وأخلصوا له العبادة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ اي من قبل أن يأتيكم العذاب من عند الله على كفركم ومعاصيكم ثم لا يعود لكم أمل بخلاصكم ، ولا يستطيع ناصر أن ينقذكم مِنْ عذاب الله النازل بكم ﴿ واتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُم ﴾ والأحسن هو القرآن ، فقد

---

(١) يحدقون : أحدق ، استدار بشيء وأحاط به .

أنزل الله كتباً كالتوراة والإنجيل والزبور ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن ، أو بمعنى : أن أوامر الله اشتملت كلها على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض فأمروا أن يأخذوا بالأحسن ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ أي من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لا تعلمون به حتى ينزل بكم ، ولا يخفى ما في هذا من تهديد ووعيد .

ثم يبين القرآن مدى الحسرة التي تصيب العصاة يوم القيامة عندما يرون سوء العذاب النازل بهم :

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥٦ ـ ٥٩) .

أي بادروا أيها العصاة إلى التوبة والعمل الصالح قبل ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ﴾أي لئلا تقول نفس يوم القيامة ﴿ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ أي يا ندمي على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به ، وقصرت في الدنيا بطاعة الله ﴿ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ وإن كنت من المستهزئين بأمر الله وكتابه ورسوله والمؤمنين به ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أو تقول لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي المعاصي والشرك بالله ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ ﴾ أو تقول حين ترى عذاب جهنم ﴿ لَوْ أن لي كَرَّةً ﴾ لو أن لي رجعة إلى الدنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأكون من المؤمنين بالله الموحدين له المهتدين بهديه المحسنين في أعمالهم .

ثم يأتي الجواب الرباني على تحسرات كل مذنب : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ

آياتي ﴾ بلى قد جاءك الهدى من الله بإرسال رسوله محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ فكذبت بآيات القرآن وقلت بأنها ليست من عند الله وتكبرت عن الإيمان وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويتبع منهاجهم .

ثم يعطينا القرآن صورتين من صور يوم القيامة : صورة قاتمة للمذنب ، وصورة مفرحة للمتقي ربه :

﴿ وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ في جَهَنَّم مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ . وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٠ ، ٦١) .

أي وفي يوم القيامة ترى يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ فزعموا أن له ولداً ، وأن له شريكاً ، وعبدوا آلهة من دونه ﴿ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ﴾ أي ترى وجوههم مسودة لما أحاط بها من العذاب ، وبما نالها من الشدة ﴿ أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أليس في جهنم مأوى ومسكن لمن تكبر على الله فامتنع عن توحيده وطاعته .

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِين اتَّقَوْا ﴾ أي وينجي الله من جهنم وعذابها الذين اتقوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه في الدنيا ﴿ بِمَفَازَتِهِم ﴾ والمفازة من الفوز والظفر ، فيكون المعنى : وينجي الله المتقين بسبب دخولهم في مكان ظفرهم بمقصودهم وهو الجنة ﴿ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ لا يمس المتقين من أذى جهنم شيء ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ ولا هم يحزنون على ما فاتهم من مآرب الدنيا إذ صاروا إلى كرامة الله ونعيم الجنان .

ثم تعود بنا الآيات إلى الكلام عن تفرد الله بخلق الكون الجدير وحده بالعبادة :

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّموات وَالأَرْض والَّذِين كَفَرُوا بآيَاتِ الله أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ . قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ ﴾ (٦٢ - ٦٤) .

فالله سبحانه هو الخالق للأشياء جميعها ، وإذا كانت هذه صفته فهو وحده الجدير بالعبادة ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ وهو على كل شيء قيم بحفظه ، الكفيل بأرزاق العباد ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّموات وَالأَرْض ﴾ له مفاتيح خزائن السماوات والأرض ، ومن له المفاتيح له الخزائن ، وهذا كناية عن شدة التمكن والتصرف في كل شيء في السماوات والأرض ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي والذين جحدوا بحجج الله التي تشهد بوحدانية الله فكذبوا بها ، أو جحدوا بآيات القرآن وكذبوا بها فأولئك الذين خسروا نعيم الآخرة واستحقوا عذاب النار ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ أي قل يا محمد لقومك : أفتأمروني أيها الجاهلون أن أعبد غير الله من أصنام وأوثان وأترك عبادة الله الذي لا تجب العبادة لأحد سواه .

نعم إن عبادة غير الله هي عين الجهل فكيف يعبد الإنسان جمادات لا تعي ولا تسمع ولا تبصر ، وكيف يعبد الإنسان بعض مظاهر الطبيعة وبعض الأشخاص الذين هم من خلق الله ويترك عبادة الله الواحد الأحد خالق كل شيء ، أمور منطقية يعرضها القرآن على العقل البشري ليجتنب كل العبادات الباطلة لغير الله .

ثم يبين القرآن بعد ذلك ما يترتب على اتخاذ شريك مع الله من خسران في الآخرة :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ . وَمَا قَدَرُوا

اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٥ ـ ٦٧) .

فالله يخاطب رسوله محمداً مؤكداً : لقد أوحينا إليك وإلى الذين من قبلك من الرسل لئن أشركت بالله شيئاً في العبادة ليبطلن عملك ولا تنال به ثواباً ، بل تنال بذلك إثم من أشرك بالله ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ ولتكونن من الهالكين إن أشركت به شيئاً من خلقه .

هذا الكلام سيق على سبيل الافتراض لتنفير المخاطب من عاقبة الإشراك بالله ، وما سيحل بالمشرك من هلاك وخسران ، كما أنه لا مجال لتصور الإشراك من جانب النبي ﷺ .

ويتابع الله خطابه لرسوله ﷺ ﴿ بَلِ الله فَاعْبُدْ ﴾ إن تقديم المفعول على الفعل يفيد الحصر ، أي احصر العبادة بالله وحده ولا تعبد ما أمرك به قومك بل اعبده دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وكن من الشاكرين لربك لإنعامه عليك بما هداك إليه من توحيده ، وما اختصك به من الرسالة الإلّهية .

﴿ وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموا الله حق تعظيمه إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها . ثم أخبر عن قدرته وعظمته : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْم القِيَامَةِ ﴾ والحال أنه موصوف بهذه العظمة ، فالأرض مع سعتها وكثافتها في مقدوره تعالى وملكه وتصرفه كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه ﴿ والسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمينِهِ ﴾ واليمين في كلام العرب تكون بمعنى القدرة والملك ، والطي إدراج الشيء في بعضه وضده النشر ، والمعنى : فالسماوات تطوى بقدرة الله تعالى ، والمقصود من الآية تصوير عظمة الله التي لا يحيط بها الوصف وبالغ قدرته التي ليس لها حدود

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزه الله وتقدس عما يجعلون له شركاء مع هذه القدرة العظيمة والحكمة الباهرة .

ويتابع القرآن فيذكر حدثين خطيرين إيذاناً بالقيامة ، ويتبع ذلك بذكر جلال الله المسيطر على الخلائق آنذاك حيث يُحاسب الناس بما عملوا من أعمال صالحة أو سيئة :

﴿ وَنُفِخَ في الصُّور فَصَعِقَ مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأَرْض إلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ[1] . وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بالنَّبِيِّين وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦٨ - ٧٠) .

والصور هو البوق والذي ينفخ فيه هو الملك إسرافيل ، وعند النفخ فيه ﴿ فَصَعِقَ مَنْ في السَّمٰواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ ﴾ أي يموت الخلق كلهم ﴿ إلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ قيل إن المستثنى هم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش من الملائكة ، ثم يقبض الله أرواح هؤلاء حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وفي رواية أن آخر من يموت هو جبريل ، وينفرد الله الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي بالديمومة والبقاء ويقول : ﴿ لِمَن المُلْكُ اليوم ﴾ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول :

---

(١) ظاهر الآية يفيد أن هناك نفختين : نفخة يصعق بها المخلوقات ونفخة البعث ، وقيل إن النفخ ثلاث مرات : فالنفخة الأولى تطول وتكون بها الزلزلة وتكوير الشمس وانكدار النجوم والناس أحياء يرون ذلك فزعين . وقد جاء في القرآن : ﴿ يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ﴾ وقد فسرت هذه بالنفخة الأولى . والنفخة الثانية يكون بها الصعق وعندها يموت جميع الأحياء إلاّ من شاء الله . والنفخة الثالثة نفخة قيام الخلق من القبور أحياء والمدة بين هاتين النفختين أربعون سنة .

﴿ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّار ﴾ ثم يحيي الله أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرونَ ﴾ أي يصير الخلق أحياء بعد أن كانوا عظاماً ورفاتاً ينظرون أمر الله فيهم ، وقيل المراد بالنظر الانتظار ، أي ينتظرون ماذا سيفعل الله بهم ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها ﴾ إشراق الأرض إضاءتها ، ومعنى : ﴿ بِنُورِ رَبِّها ﴾ أي بعدل ربها ، أو بحكم ربها ، أي أضاءت وأنارت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده ، والظلم ظلمات ، والعدل نور . وقيل : إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ ﴾ أي ووضعت الكتب والصحف التي فيها أعمال بني آدم ﴿ وَجِيءَ بالنَّبِيِّين ﴾ أي جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أممهم ، ويشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿ وَالشُّهَداء ﴾ أي وجيء بالشهداء الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد[١] ، وقد يراد بالشهداء الملائكة الحفظة[٢] الذين يشهدون على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحَقِّ ﴾ أي وقضي بين العباد بالصدق والعدل ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُون ﴾ لا بنقص من حسناتهم وثوابهم ، ولا بزيادة على سيئاتهم وما يستحقونه من عقاب ﴿ وَوُفِّيَت كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ أي أعطى الله كل نفس جزاء عملها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وهو سبحانه أعلم بما كانوا يفعلونه في الدنيا فلا حاجة به إلى كتاب أو إلى شاهد .

---

(١) قال تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ جعلناكم أمةً وَسَطاً لتكونوا شهداء عَلَى النَّاس ﴾ .

(٢) قال تعالى في شأن هؤلاء الحفظة من الملائكة ﴿ وَجاءت كُلُّ نَفْس مَعَها سائِقٌ وشهيد ﴾ أي جاءت كل نفس من الناس ومعها سائق من الملائكة يسوقها إلى الحساب وشاهد من الملائكة يشهد عليها بما عملت .

ثم يعرض القرآن مشهدين عن مصير الناس يوم القيامة ، مشهداً للكفار حيث يساقون إلى عذاب النار ، ومشهداً للمتقين وهم يساقون إلى نعيم الجنة ، أما مشهد الكفار فهو على الشكل الآتي :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُون عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا : بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٧١ ، ٧٢) .

فالكافرون يساقون ، أي يدفعون ويحثون على السير بعنف إلى جهنم ﴿ زُمَراً ﴾ أي جماعات متفرقة بعضها إثر بعض ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ حتى إذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً ليدخلوها ، كأبواب السجون المغلقة دائماً حتى يأتي أرباب الجرائم الذين يسجنون فيها فتفتح ليدخلوها فإذا دخلوها أغلقت عليهم ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ أي قالت لهم الملائكة القائمون بأمور جهنم الموكلون بتعذيب الكفار فيها ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُون عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ ألم يأتكم رسل - أي سفراء - من عند الله من جنسكم وهم الأنبياء يقرأون عليكم كتب الله المنزلة من عنده ، هذا القول من خزنة جهنم هو على سبيل التوبيخ والتقريع . فيجيب الكفار : ﴿ قالوا : بَلَى ﴾ نعم قد جاءونا وأنذرونا من عذاب الله ولكن كذبناهم وخالفنا ما وعظونا به ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ولكن وجبت كلمة العذاب على الكافرين لاختيارهم الكفر على الإيمان . وبعد أن اعترفوا هذا الاعتراف يقال لهم زيادة في توبيخهم وإيلامهم ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ادخلوا جهنم - دار العذاب - لتكتووا بنارها ماكثين فيها مكوثاً أبدياً لا تنتقلون عنها إلى غيرها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ فبئس هذا المسكن وهو جهنم للمتكبرين عن

الإيمان بالله المتولين عن طاعته .

وإن وصف الكافرين بالكبرياء هو لفت للأنظار بأن أكبر عائق يحول بين الإنسان وبين اتّباع الحق هو الكبرياء التي هي العلة لأكثر الآفات الاجتماعية ، فلو تخلى الإنسان عن كبريائه وأصغى بتواضع لكلمة الحق ونداء العقل لقاده ذلك إلى الإيمان بالله والإذعان لهدايته .

وبعد هذا المشهد الرهيب لمصير الكافرين يأتي مشهد النعيم الذي خص الله به المتقين :

﴿ وَسِيقَ الَّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوها وَفُتِحَت أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ (٧٣ ، ٧٤) .

فالمتقون يساقون برفق إلى الجنة جماعة إثر جماعة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾[١] أي حتى إذا وصلوا إليها وقد فتحت لهم أبوابها الثمانية كما يفتح الخدم باب المنزل للضيف قبل قدومه ، وتقف منتظرة حضوره فرحة بمقدمه وفي ذلك من الاحترام والإكرام له ما فيه . ﴿ وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا ﴾ وقال لهم حراسها والقائمون بأمرها ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ هذه التحية ترمز إلى الأمان من جميع المكاره والآلام ، وتبعث في نفوسهم الطمأنينة والرضى . وتضيف الملائكة إلى السلام قولهم : ﴿ طِبْتُم ﴾ أي طابت

(١) قال تعالى في صفة جهنم : ﴿ فُتِحت أبوابها ﴾ بينما قال سبحانه في صفة الجنة ﴿ وفُتِحت أبوابها ﴾ بزيادة الواو . قيل الحكمة في ذلك هو أن أبواب جهنم تكون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، وفي هذا من الإذلال والتحقير له ما فيه بخلاف أبواب الجنة التي زيد فيها (الواو) التي ترمز إلى أن أبواب الجنة تفتح لهم مسبقاً إكراماً لهم .

أعمالكم أيها المؤمنون ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ فادخلوا الجنة ماكثين فيها مكوثاً أبدياً لا خروج لكم منها.

وعندما يرى المتقون نعيم الجنة الذي خصهم الله به تنطلق ألسنتهم بالثناء على الله : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي الشكر لله الذي حقق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ وجعلنا نتصرف في أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث وننزل فيها حيث نشاء ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ فنعمت الجنة أجراً للذين كانوا في دنياهم يعملون بطاعة الله .

ثم يأتي ختام السورة على هذا الشكل الذي يثير الحب والإجلال لرب العالمين المستحق للشكر والثناء :

﴿ وَتَرَى الملائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٥) .

أي وترى يا محمد أو أيها الرائي الملائكة ﴿ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ أي محيطين ومحدقين حول عرش الله ﴿ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ أي يصلون حول عرش الله شكراً له ، أو ينزهون الله عما لا يليق به وهم يقرنون التسبيح بالحمد ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي حكم الله وقضى بين العباد بالعدل فأدخل بعضهم الجنة ، وبعضهم النار ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذه الكلمة الناطقة بالحمد يقولها المؤمنون وتقولها الملائكة في آخر المطاف بعد الحكم بين الناس بالعدل .

فكلمة الثناء على الله انطلقت حين خلق الله السماوات والأرض كما جاء في القرآن : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي خَلَق السَّمواتِ وَالأرضَ ﴾ كما انطلقت كلمة الثناء في العالم الآخر ، فللّه الحمد أولاً وآخراً .

سُورَةُ غَافِر

تتحدث سورة غافر عن الصراع الدائر بين الإيمان والكفر ، والحق والباطل ، والدعوة إلى دين الله ، وقضية العلو في الأرض ، والتجبر بغير الحق ، وعذاب الله الذي يصيب المتجبرين الطاغين في الدنيا والآخرة .

كما تلمُّ السورة بموقف المؤمنين من هدى الله ونصرة الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم واستجابة الله لدعائهم ، وتخصيصهم بالنعيم في الآخرة .

ومن أبرز صور الصراع بين الإيمان والطغيان قصة موسى مع فرعون الطاغية ، وفي ثنايا القصة تُعرض قصة مؤمن من آل فرعون يخفي إيمانه فيصدع بكلمة الحق بأسلوب مؤثر مقنع محذراً آل فرعون عذاب الله.

وفي السورة مواقف كثيرة تذم المنكرين لآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، وصدق رسالة نبيه محمد ﷺ ، فتعرض السورة مظاهر من قدرة الله كإنزال المطر من السماء الذي هو سبب أرزاق العباد ، كما تلفت أنظار الناس إلى خلق السماء وما فيها من عوالم ، والأرض وما فيها من كائنات ، وكذلك اختلاف الليل والنهار ، وخلق الإنسان والتطورات التي تطرأ عليه منذ ابتداء تكوينه في بطن أمه إلى أن يصبح شيخاً هرماً .

كما نرى في السورة مواقف مرعبة من هول ما يصيب الطغاة والمشركين من عذاب يفوق الوصف والتصور .

سميت هذه السورة « سورة غافر » لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الذي هو من صفات الله الحسنى في مطلع هذه السورة ﴿ غافر الذنب وقابل التوْب ﴾ وتسمى هذه السورة « سورة المؤمن » لما اشتملت عليه من قصة مؤمن آل فرعون .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ
ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾
مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ
بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟

شرح المفردات

غافِرِ الذنب : الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم بالعفو عنها .

قابل التَّوب : يقبل توبة العصاة لمن تاب منهم عن ذنوبه ويغفر لهم .

ذي الطَّوْل : صاحب الغنى والإنعام والتفضل .

إليه المصير : إليه المرجع والمآب .

ما يجادل : ما يخاصم .

يَغرُرْك : يخدعك .

تقلُّبهم في البلاد : تنقلهم في البلاد سعياً وراء الكسب المادي .

الأحزاب : هم الطوائف التي اجتمعت على محاربة الأنبياء .

وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه : وتعرضت كل أمة لرسول الله ليقتلوه أو يعذبوه .

فأخذتهم : فأهلكتهم .

حقَّت : وجبت .

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣

شرح المفردات

العرش : سرير الملك ويكنى به عن العز والسلطان ، وعرش الله من أمور الغيب .

يسبحون بحمد ربهم : يصلون لربهم حامدين شاكرين له .

واتبعوا سبيلك : واتبعوا طريقك وهو طريق التوحيد .

وقهم عذاب الجحيم : واحفظهم من عذاب النار يوم القيامة .

جنات عدن : بساتين الإقامة الدائمة .

لَمَقْتُ الله : لغضب الله الشديد .

فهل إلى خروج من سبيل : فهل نردّ إلى الدنيا ثانية لنعمل بطاعة الله .

من يُنيب : من يرجع إلى الله بالتوبة .

سورة غافر

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تبأ بالحرفين (ح.م)[١] إشارة إلى أن القرآن المعجز بأسلوبه وهديه مكون من مثل هذين الحرفين من حروف الأبجدية فعجز الناطقين باللغة العربية عن أن يأتوا بمثله دليل على أن القرآن وحي إلهي .

ثم يبين الله سبحانه بأن القرآن مُنزل من عنده ، وأنه سبحانه وتعالى يتصف بمحاسن الصفات :

﴿ حمٓ . تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١ - ٣) .

فصفات الله المذكورة هنا يغلب عليها سمات العظمة والجلال ، فهي

---

(١) حمٓ : هذان الحرفان وغيرهما من الأحرف التي جاءت في أوائل السور هي من المتشابه في القرآن ، وقد ذهب العلماء في تفسير المراد منها مذاهب مختلفة ، فقال البيضاوي : إنها أسماء حروف يتركب منها الكلام افتتحت بها بعض السور إيقاظاً لمن تحداهم الله بالقرآن وتنبيهاً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون به كلامهم ، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم ـ مع تظاهرهم وقوة فصاحتهم ـ عن الإتيان بما يدانيه . وقيل : إن (حمٓ) اسم من أسماء القرآن . وقيل إن (حمٓ) قسم أقسمه الله تعالى به وهو اسم من أسماء الله . وقيل : إنها سرٌّ استأثر الله بعلمه . وقيل المراد بها تنبيه القارىء للاستماع للقرآن ، فقد كان بعض العرب يعرضون عند استماعهم للقرآن فلما نزلت (الٓمٓ) (حمٓ) وغير ذلك من فواتح السور صدمتهم هذه الألفاظ وتاقت أنفسهم إلى معرفة ما يتلوه رسول الله من القرآن والوقوف على معانيه وأغراضه ، فلما أنصتوا أقبل عليهم رسول الله ﷺ يتلوه على أسماعهم ويقيم الحجة عليهم ، فهذه الأحرف ذكرت في أوائل السور لاستدراج العرب حتى يقبلوا عليه ويستمعوا له .

وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن هذه الأحرف التي في بداية بعض السور تتكرر في السورة ذاتها أكثر من غيرها من الأحرف وتتفوق حسابياً على غيرها .

تشعر الناس بأنهم في قبضة الله لا مهربَ لهم منه ، ومن ناحية أخرى فهي تثير رجاء الناس وطمعهم في ثواب الله وتحذرهم من عصيانه ، وتدعوهم إلى الإصغاء إلى ما تحتويه السورة من أوامر ونواهٍ ـ فمن صفاته سبحانه :

﴿ العَزيز ﴾ أي القوي القادر الذي يَغلِبُ ولا يُغلب .

﴿ العَلِيم ﴾ صيغة مبالغة من العلم ، فهو سبحانه يصرِّف الكون عن علم وإحاطة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾[١] أي الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم يقبل توبة العصاة تفضلاً منه إذا رجعوا إليه بالندم على ما فات والعمل الصالح .

﴿ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ شديد العقوبة لمن عصاه وتمرد على أوامره .

﴿ ذي الطَّوْلِ ﴾ ذي الإنعام على عباده والتفضل عليهم ، وقيل : ذي القدرة والغنى .

﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ لا معبودَ أهلاً للعبادة إلاّ هو فلا إله غيره ولا ربَّ سواه .

﴿ إِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ إلى الله المرجع فيجازي كل إنسان بعمله .

ولقد كان أصحاب المِلل السابقة قبل الإسلام يعبدون آلهة متعددة ، يتقربون إليها بالصلوات والأدعية والقرابين ، ويحيطونها بهالة من الخرافات والأساطير ، فجاء الإسلام بالتوحيد الخالص لله ، وعرف المسلمين بصفاته الحسنى ، وبيَّن لهم كيف يتقربون إليه وكيف يتقون عذابه .

---

(١) التوب : مصدر بمعنى التوبة من تاب يتوب توبة وتوباً ، وقيل هو جمع توبة .

وبعد أن بيّن القرآن بعض صفات الله التي تضع الإنسان على بينة من أمره تحدث عن فئات من الناس آثرت الكفر على الإيمان :

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ (٤) .

المراد بالجدال المخاصمة والنِّقاش بالباطل . فالجدال في آيات الله [أي آيات القرآن الكريم] هو أن يقال مرة إنها سحر ، ومرة إنها شعر ، ومرة إنها من قول الكهنة ، ومرة إنها أساطير الأولين ، ومرة إنها من تعليم البشر ، وقد قيل كل ذلك في عهد النبي ﷺ ، والقرآن في حقيقة الأمر مخالف لكل ذلك بما شهد به ويشهد كل ذي علم .

وقد يراد بآيات الله : حجج الله والأدلة على وحدانيته ، فالذين جادلوا في آيات الله وخاصموا بها هم الذين كفروا وأعرضوا عن الحق عن عناد وعمى في قلوبهم .

وفي شأن هؤلاء المجادلين بالباطل يخاطب الله نبيه ﷺ : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ والتقلب في البلاد المراد به هنا الخروج من أرض إلى أرض سعياً وراء الكسب المادي ، فالله يقول للنبي ﷺ : لا ينبغي أن تغتر يا محمد بأن الله يمهل الكافرين ويتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتصرفون في البلاد للتجارة وطلب المعاش ، فإني وإن أمهلتهم عاجلاً فإني سأنتقم منهم آجلًا ، وهكذا كانت قبيلة قريش في بدء الدعوة الإسلامية فهي لم تذعن للحق وكذبت بدعوة محمد وأنكرت رسالته ، وكان أفراد هذه القبيلة يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال الوفيرة يتجرون بها .

ويتابع القرآن فيذكر ما حل بالأمم المكذِّبة لأنبيائها من هلاك وعذاب

ليتعظ بذلك كفار مكة وليحذروا أن يحلَّ بهم ما حلَّ بسواهم من الكفرة:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ . وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (٥ ، ٦) .

فالله سبحانه يقول : كذبت دعوة رسل الله قبل قومك يا محمد أمم شتى ، منهم : قوم نوح ﴿ والأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي والأحزاب الذين تحزبوا وتجمعوا ضد أنبيائهم كقوم عاد وثمود ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ وقصدت كل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم المرسل إليهم من الله ليقتلوه ، أو ليعذبوه ، أو ليحبسوه ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ وخاصمت كل أمة رسولها بإيراد الشبهات على رسالته ليزيلوا بذلك الحق الذي جاء به ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي فأنزل الله بهم من الهلاك جزاء ما قاموا به من اضطهاد لرسل الله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي ألم ينظروا إلى آثار الهلاك التي أوقعها الله بهم ليكون في ذلك عبرة وعظة لمن بعدهم ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي وكما وجب وثبت حكم الله تعالى بإهلاك الأمم الماضية المكذبة لرسل الله وجب أيضاً الهلاك على الذين كفروا من قومك يا محمد بالعذاب الذي يستأصلهم في الدنيا ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ وبجانب عذاب الدنيا لهم في الآخرة عذاب النار .

وبعد أن بيَّن القرآن مصير المكذبين برسل الله يأتي مقابلهم بيان لمكانة المؤمنين وما أعد الله لهم من كرامة حيث جعل الملائكة حملة العرش تتضرع إلى الله لهم بالدعاء أن يغفر لهم ويدخلهم جنات النعيم ، وفي ذلك تطمين للمؤمنين على ما ينتظرهم من ثواب الله وتقوية لنفوسهم لتقبُّل كل

التضحيات في سبيل دينهم :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (٧) .

فأفضل الملائكة هم الذين يحملون عرش[1] الله ومن حوله من الملائكة ، فهؤلاء ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي له ، والحمد هو الثناء على الله والاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق ، وقيل إن المعنى : إن الملائكة يصلون لربهم حمداً له وشكراً ﴿ وَيُؤْمِنُون بِهِ ﴾ أي يصدقون بوجوده وبأنه لا إله لهم سواه ، وتخصيص الملائكة بالإيمان به في هذه الآية مع أن جميع الملائكة يؤمنون به هو لإظهار فضيلة الإيمان بالله وبيان شرفه والترغيب فيه ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهؤلاء الملائكة يسألون ربهم أن يغفر للذين أقروا بأنه لا إله إلاّ الله ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ ربنا وسعت رحمتك كل شيء فأسبغت عليه الخيرات ، فالحيوان يغدو ويروح برحمتك ، والإنسان يمسي ويصبح متقلباً في نعمتك ، كما وسع علمك كل شيء فلا يغيب عنك مثقال ذرة في السماوات والأرض لأنك خالقه ومبدعه فعلمك يا رب محيط بجميع أعمال الناس وأقوالهم . وفي وصف الله بالرحمة والعلم ـ قبل الدعاء ـ تعليم للناس أدب السؤال والدعاء ، وذلك بأن يبدأوا الدعاء بالثناء على الله

(١) العرش : هو سرير الملك ويكنى به عن العز والسلطان ، أما عرش الله فهو من الأمور الغيبية التي نؤمن بها ولا ندري عن كنهها شيئاً . وإن حمل الملائكة لعرش الله لا يستدعي أن يكون جالساً عليه وإلاّ لكان الملائكة حاملين لله سبحانه ، ولكان الله جسماً محدداً . والله يتنزه عن ذلك . فالله سبحانه كما جاء في القرآن ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ ولهذا لا يجوز تشبيه الله بما هو متعارف .

ثم يستمطروا إحسانه وفضله .

وتتابع الملائكة دعاءها : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أي فاصفح يا رب وآعفُ عن المسيئين من عبادك المؤمنين إذا تابوا وأقلعوا عن اقتراف السيئات ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات ، وترك المنكرات ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أي وآحفظهم يا رب من عذاب النار جزاء إيمانهم وإخلاصهم لك .

وبعد دعاء الملائكة ربهم بأن يغفر للمؤمنين سيئاتهم يسألونه أيضاً بأن يخص المؤمنين بنعيم الآخرة ، وفي هذا بشرى للمؤمنين بما ينتظرهم من ثواب الله لأن الملائكة لا تدعو إلّا بعد اليقين من استجابة الله لهم :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٨ ، ٩) .

فالملائكة تقول : يا ربنا أدخل المؤمنين جنات النعيم والإقامة الدائمة فيها التي وعدتهم بها ، وأدخل معهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وأولادهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليتم سرورهم بهم وتقر أعينهم باجتماعهم بهم في الجنة ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إنك يا ربنا القوي الغالب ، الحكيم في تدبيره لخلقه ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي اصرف يا رب عن المؤمنين عاقبة سيئاتهم التي اقترفوها قبل توبتهم فلا تؤاخذهم عليها ، ولا تعذبهم بها ، أو بمعنى : احفظهم يا ربنا من فعل المنكرات والفواحش حتى لا يعاقبوا عليها ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ ومن تجنبه جزاء السيئات أو فعل السيئات فقد شملته برحمتك . فالسيئات هي التي تورد الناس مورد التهلكة فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها فقد

وقاهم نتائجها وعواقبها الوخيمة في الآخرة ، وكان ذلك سبباً لنيل رحمة الله والحصول على جنات النعيم في الآخرة ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وذلك هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله .

ثم تعود بنا الآيات إلى الحديث عن الكفار ، فتذكر اعترافهم بذنوبهم أمام ربهم في الآخرة ، وسؤالهم له أن يرجعهم إلى الدنيا ليتلافوا ما صدر منهم من كفر ومعصية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ . قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ (١٠ ـ ١٢) .

فالذين كفروا بالله يُعذبون في النار يوم القيامة فيبغضون أنفسهم غاية البغض بسبب عصيانهم لله ، فتناديهم الملائكة : ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي إن بغض الله تعالى لهم في الدنيا كان أشد من بغضهم لأنفسهم في هذا اليوم العصيب ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ إذ : هي تعليل لما سبق أي ذلك المقت من الله كان بسبب أنكم كان يُعرض عليكم الإيمان فتأبون إلا كفراً .

ثم يخاطب الكفار ربهم : ﴿ قَالُوا : رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ فالموتة الأولى هي التي كانوا فيها في العدم قبل أن يُخلقوا ، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا بعد خلقهم . وبالنسبة للحياة فالحياة الأولى هي حين أحياهم الله في الدنيا ، والحياة الثانية هي حياة البعث يوم القيامة[1] حين

---

(١) أشار القرآن إلى ذلك في سورة البقرة آية ٢٨ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُم أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحيِيكُم ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يخرجون من قبورهم أحياء للحساب ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أي فأقررنا بما عملنا من الذنوب فهل لنا وسيلة للخروج من النار والعودة إلى الدنيا كي نعمل غير الذي كنا نعمل في دنيانا السابقة ونسلك عندئذٍ طريق الأبرار ، هنا يأتي الجواب الإلٓهي : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أي ذلكم العذاب الذي أنتم فيه لأن شأنكم في الدنيا كان إذا عُبِدَ الله وحده كفرتم بوحدانيته ، وإن أشرك بعبادته مشرك صدقتموه وآمنتم بأن له شريكاً وبذلك استحققتم العذاب من ربكم ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ فالقضاء لله وحده دون غيره وهو العلي على كل شيء ، الكبير الذي كل شيء سواه ذليل له ، محتاج إليه .

ثم تأتي الآية التالية داعية إلى التفكر في المظاهر الكونية التي تدل على وجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣) .

فالله سبحانه يُري الناسَ ﴿ آيَاتِهِ ﴾ أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وربوبيته من خلال ما يشاهدون في الأرض وفي السماء من مظاهر قدرة الله التي تجعل الناس يذعنون لعظمة الخالق وإبداعه ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً ﴾ أي وينزل لكم أيها الناس من السماء مطراً الذي هو سبب الرزق من ثمار وحبوب وخضار ونبات ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ وما يعتبر ويتعظ بهذه الآيات الباهرة إلاّ من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله وحده بالإخلاص له والإقبال على طاعته .

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي
الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ
بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ
﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ
مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا
تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي

شرح المفردات

رفيع الدرجات : رفيع الصفات المستحق لأعلى درجات المدح والثناء .

ذو العرش : مالك العرش وخالقه والمتصرف فيه .

يُلقي الروح : ينزل الوحي ، وهو ما يبلغ الله به رسله من الشرائع .

يوم التلاق : يوم القيامة حيث يلتقي فيه الأولون والآخرون من البشر .

بارزون : خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء .

يوم الآزفة : يوم القيامة .

الحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم .

كاظمين : انطوت نفوسهم على غم وكرب .

من حميم : من قريب ينفع .

يعلم خائنة الأعين : يعلم الله مسارقة النظر إلى المحرمات .

ما تُخفي الصدور : ما تكنه وتضمره القلوب .

يَدْعون من دونه : يعبدون غير الله .

ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ
أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا
كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ
وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا
قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ
ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ
وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ
لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾

شرح المفردات

عاقبة : الخاتمة والمصير .

مِنْ وَاق : من حافظ يحفظهم من عذاب الله .

بآياتنا : بمعجزاتنا .

وسلطان مبين : وحجة واضحة بينة .

كَيْدُ : هو الاحتيال في إلحاق الضرر بالغير .

ضلال : بطلان وضياع .

عُذْت بربي : اعتصمت والتجأت إلى ربي .

ويتابع القرآن فيدعو إلى عبادة الله وحده بإخلاص لأنه المتفرد بالعظمة والكمال :

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ . رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُون لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٤ ـ ١٧) .

والمعنى : فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة غير مشركين به شيئاً ، ولو كره الكافرون عبادتكم وإخلاصكم لله وغاظهم ذلك .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ فالرفيع يحتمل أن يكون المراد منه الرافع أو المرتفع ، فإذا حملناه على معنى المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال لا شيء أرفع قدراً منه ، وهو المستحق لأعلى درجات المدح والثناء . أما إذا حملنا رفيع على معنى الرافع : فهو سبحانه يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة ، أو هو سبحانه رافع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة . ﴿ ذو الْعَرْشِ ﴾ مالك العرش ومدبره وخالقه ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ ينزل الوحي الإلٰهي أو الكتب المنزلة من عنده بقضائه ، وقد سمى الله الوحي روحاً لأن الناس يحيون به من موت الكفر والضلال ، كما تحيا الأبدان بالأرواح ، وهو سبحانه ينزل الوحي ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ممن اصطفاهم للنبوة والرسالة ﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴾ ليخوف الناس ويحذرهم من يوم القيامة ، وسمي يوم القيامة بيوم التلاق لأنه تتلاقى فيه العباد للحساب والجزاء ، أو يلقى فيه الإنسان جزاء

عمله ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ يوم هم ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُم شَيء ﴾ لا يخفى على الله شيء من أعمالهم وأسرارهم ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ حكاية لما يقع حينئذٍ من السؤال والجواب ، قيل : إن السائل والمجيب هو الله سبحانه وقد يكون السائل جمعاً من الملائكة والمجيب جمعاً آخرين ، أو يكون السائل ملكاً من الملائكة والمجيب الناس جميعاً . نعم فالملك لله وحده الذي قهر كل شيء وغلبه .

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فيوم القيامة يُجازى كل إنسان بعمله ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ فلا يُظلم أحد في هذا اليوم لا بنقص في الثواب ، ولا بزيادة في العقاب ﴿ إنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إن الله سريع حسابه ، فيحاسب الخلائق على أعمالهم التي عملوها في الدنيا . وسرعة الحساب مع العدالة دليل على قدرة الله سبحانه لأن اجتماع الخلائق من لدن آدم إلى يوم القيامة ثم محاسبتهم يستغرق وفق مفهومنا آجالاً طويلة ، ولكن قدرة الله وعلمه تجعل الحساب سريعاً . وكما قيل يحاسب الخلق جميعاً في وقت واحد لا يشغله حساب من حساب ، وأنه سبحانه كما يرزق الخلق في وقت واحد يحاسبهم كذلك .

ويتابع القرآن الكلام عن القيامة وأحوال الناس فيها والعدالة الإلٰهية في مجازاة الناس :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ . ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ . يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١٨ ـ ٢٠) .

فالله يخاطب رسوله محمداً قائلاً : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ أي وحذر قومك وخوّفهم من يوم القيامة ، وقد سمى الله القيامة آزفة لقربها بالنسبة لما مضى من عمر الدنيا ، يقال أزف الوقت أي قرب ، وقيل : الآزفة هي المنية وحضور الأجل ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ إذ القلوب ترتفع من أماكنها وتقف في الحناجر[1] من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها ، يحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازاً عبّر به عن شدة الخوف . ومعنى كاظمين : مكروبين ممتلئين غماً لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ﴿ مَا لِلظَّالِمينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ليس للظالمين من قريب ينفعهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أي إن الله يعلم النظرة الخائنة ، كاستراق النظر إلى المحرمات وما نهى الله عنه ، كما يعلم سبحانه ما تكنّه الصدور وما تخفيه من الخواطر والأسرار .

هذه الحقيقة التي يعلنها القرآن تبين مدى شمول المراقبة الإلّهية للإنسان ، فإذا آمن بذلك الإنسان ووعاه حق الوعي كان من أهم المؤثرات التربوية التي تدفعه لسلوك الطريق القويم وتجعله مواطناً صالحاً . فالمؤمن إذا هَمَّ بمعصية أو إثم وأدرك أنه على مرأى من الله وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء فيغلبه الحياء عندئذٍ من أن يراه الله حيث نهاه عنه ، فيتراجع عن إثمه وعصيانه لله .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ واللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أي يحكم بالعدل ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُون بِشَيءٍ ﴾ والذين تعبدونهم من غير الله لا يحكمون بشيء ، وليس من شأنهم أن يحكموا لا عدلاً ولا ظلماً ، وهذا

---

(١) الحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم

تهكم بالمشركين فإن ما يعبدون من أصنام وغيرها لا تقدر على فعل شيء فكيف يتخذونها آلهة ويخصونها بالعبادة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ فهو السميع لأقوال الناس البصير بأفعالهم ، بينما آلهتهم لا تسمع ولا تبصر .

ثم يصرح القرآن بعد ذلك بأن هلاك الأمم وسقوطها هو بسبب ما تقترفه من ذنوب :

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيروا في الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً في الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ (٢١ ، ٢٢) .

فالله سبحانه يقول : أَوَ لم يَسِرْ في الأرض هؤلاء المشركون بالله ، المكذبون رسوله محمداً بما جاء به من الوحي ، فيعتبروا بما يرون من آثار الأمم التي مضت قبلهم والذين سلكوا طريق الكفر والمعاصي ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ كانت تلك الأمم أشد من قومك يا محمد بطشاً ﴿ وَآثاراً في الأَرْضِ ﴾ وأقوى آثاراً في الأرض بما عمروا فيها من الحصون والقصور ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ والذنب هو الإثم والجرم والمعصية ، أي أهلكهم الله بما أجرموا واكتسبوا من آثام ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ وما كان لهم من يصونهم ويحميهم من عذاب الله إذ جاءهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي ذلك العذاب سببه أنه كانت تأتيهم رسل الله بالبيّنات الواضحة على وحدانية الله ووجوب طاعته فأنكروا تلك الوحدانية واستمروا على عصيانهم لله ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي أهلكهم الله بعذابه بسبب خطاياهم ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ إن الله ذو قوة لا يقهره شيء ، ولا يغلبه أحد ، شديد عقابه لمن عصاه من خلقه .

فالذي دعا إليه القرآن من السير في الأرض والاعتبار بما حل بالأمم السابقة من هلاك بسبب ذنوبها ومعاصيها هو درس للأمم اللاحقة لتستفيد مما حلَّ بأسلافهم من دمار وهلاك فتجتنب الأخطاء والذنوب التي وقعوا فيها .

وبعد الكلام عن الأمم السابقة التي أصابها الهلاك بسبب ذنوبها يقدم القرآن مثالاً على موقف الطغاة من دعاة الحق وذلك بعرض جانب من قصة موسى مع فرعون .

وتجدر الإشارة إلى أن قصة موسى مع فرعون وردت في كثير من السُّوَر بأساليب شتى يتوخى القرآن في ذكرها العظة والاعتبار ، أما في هذه السورة فإننا نرى القرآن يقدم بعض الوقائع التي تشبه ما وقع مع النبي ﷺ من حيث الدعوة إلى الله والمعارضة الشديدة التي لقيها كل منهما ، مع ذكر بعض حوادث اضطهاد لقيها موسى تشبه ما كان يلقاه محمد ﷺ من قومه أيضاً ، وفي ذلك تثبيت لقلب محمد ومن معه من المؤمنين ، وتبشيرهم بأن العاقبة الحسنة ستكون لهم كما كانت لأتباع موسى .

يستهل الله قصة موسى مع فرعون بهذه الآيات :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢٣ ـ ٢٥) .

فالله سبحانه يقول بأنه أرسل رسوله موسى ﴿ بِآيَاتِنا ﴾[1] أي بمعجزات

---

(١) هي الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ وهي العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم .

الله الدالة على أنه رسول من الله حقاً ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة ظاهرة ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَان وَقَارُونَ ﴾ ففرعون هو ملك مصر في زمن موسى ، وهامان هو وزيره ، وقارون هو صاحب الأموال الوفيرة والكنوز الثمينة ، وقد ذكر الله قارون وهامان مع فرعون لأن هامان كان الوزير الذي يشجع الملك على الكفر والضلال والتسلط ، وقارون كان صاحب الأموال المستغل للشعب المتعدي على حقوقه . ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لقد قالوا عن موسى إنه ساحر كذاب لما عجزوا عن معارضة موسى ومجابهة ما أتى به من المعجزات ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ فلما جاءهم موسى بالبرهان القاطع الدال على أنه رسول الله حقاً ، لم يكتفوا بجحود رسالته بل ﴿ قَالُوا : اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِين آمنوا مَعَهُ ﴾ أي اقتلوا أبناء الذين آمنوا مع موسى لئلا ينشأوا على دينه فيقوى بهم ﴿ واسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ واتركوا نساءهم أحياء للخدمة ﴿ وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إلاّ في ضلالٍ ﴾ أي وما احتيال الكافرين ومكرهم إلاّ في ضياع وبطلان .

ويتطور العداء لموسى والاضطهاد له إلى عزم فرعون على قتل موسى للإجهاز على دعوته :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أو أنْ يُظْهِرَ في الأرْضِ الْفَسَادَ . وَقالَ مُوسَى إني عُذْتُ بِرَبي وَرَبِّكُم مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٢٦ ـ ٢٧) .

لقد قال فرعون : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ أي اتركوني حتى أقتل موسى وأخلصكم منه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ وليناد موسى ربه حتى ينقذه مني ﴿ إني أَخَافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ إني أخاف إن تركتُهُ حيّاً أن يغير دينكم الذي أنتم عليه بسحره ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ في الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ أو أن يظهر في الأرض

ـ أرض مصر ـ عبادة الله التي يدعوكم إليها، وهذه الدعوة في نظره هي الفساد في الأرض .

هذه كلمة يقولها كل طاغية في وجه دعاة الإصلاح بأن دعوتهم هي الفساد في الأرض . فالطغيان في منطق الطغاة هو الحق لأن في ذلك استمراراً لما هم عليه من السلطة والتسلط على أموال الأمة وتسخيرهم جماهير الشعب لمنافعهم وشهواتهم الخاصة ، بينما دعوة الحق والعدالة التي جاءت على لسان رسل الله هي في نظر الطغاة فساد في زعمهم .

أمام هذا الطغيان من فرعون لجأ موسى إلى ربه مستجيراً به : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ لقد استجار موسى بربه ورب قوم فرعون ، وفي هذا إقرار بربوبية الله وحده لهذا الكون ودعوة لقوم فرعون لأن يقتدوا به في هذا الإقرار بالربوبية لله وحده . وبجانب هذا الإقرار وصف موسى فرعون بخصلتين : الأولى هي التكبر ، والثانية هي إنكاره ليوم الحساب . فالتكبر يؤدي بالحاكم إلى الاستبداد والظلم وعدم الإصغاء لكلمة الحق ، أما نكران يوم الحساب فيجعل الحاكم أسير شهواته ونزواته فلا يتورع عن فعل كل قبيح لأنه في ظنه لا حساب ولا جزاء بعد هذه الحياة .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ
إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن
رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم
بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ
ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ
قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾
وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾
مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ
يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ
قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

شرح المفـردات

ظاهرين في الأرض : غالبين عالين في الأرض .

بأس الله : عذاب الله .

ما أُريكم : ما اشير عليكم .

دأب : جزاء .

يوم التناد : يوم القيامة .

تُولُّون مدبرين : تفرون هاربين .

عاصم : حافظ وواقٍ .

مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ
مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ
مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ
ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ
كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا
كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ
سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ
هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا
مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا

شـرح المفـردَات

مرتاب : شاكٌ في دين الله ووحدانيته .

بغير سلطان : بغير برهان وحجة .

كبُر مَقْتاً : عَظُمَ بغضاً .

يَطْبَعُ الله : يختم الله .

صَرْحاً : قصراً أو بناء عالياً ظاهراً .

لعلي أبلُغ الأسباب : لعلي أصل إلى طرق السموات وأبوابها .

وصُدَّ عن السبيل : وأعرض فرعون عن سبيل الله .

تباب : هلاك وخسران .

سبيل الرشاد : طريق الهداية .

متاع : ما تستطيبه النفوس في هذه الحياة كالمال والنساء والولد .

دار القرار : دار الاستقرار والخلود .

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾
تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ
إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا
وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾
فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾
فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾
ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟
ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

شـرح المفـردات

لا جرم : حقاً .

ليس له دعوة : ليس له استجابة دعوة لأحد .

مردَّنا : مرجعنا .

المسـرفين : المراد بذلك هنا السفاكون للدماء المتكبرون أو المشركون .

أُفوِّض أمري إلى الله : ارد واسلم امري إلى الله .

ما مكروا : ما أرادوا به من الشر .

حاق بهم : نزل بهم وأصابهم .

غدوًّا وعشياً : صباحاً ومساءً .

تقوم الساعة : تقوم القيامة .

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الحديث عن قصة مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . يعظ قوم فرعون بالوعظ المؤيد بالعقل والمنطق ، الهادف إلى مجابهة الطغيان . هذا المؤمن يدافع عن موسى ويصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر بادىء الأمر ثم في صراحة وجرأة في آخر الأمر ، يقول تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُم وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢٨) .

هذا الرجل المؤمن هو من قوم فرعون ، قيل إنه ابن عم فرعون وكان قد آمن بدعوة موسى سراً وكتم إيمانه ، هذا المؤمن استدرج قومه بنصحهم بأسلوب حكيم فلم يقل لهم : أتقتلون نبي الله ، أو أتقتلون رجلاً مؤمناً ، وإنما قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾[١] وتنكير : رجلاً ليوهم قومه أنه لا يعرف موسى . ثم يقول هذا المؤمن : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقد جاءكم موسى بالمعجزات الظاهرة لكم المشاهدة منكم الدالة على صحة نبوته .

ثم وضع هذا المؤمن قضية موسى أمام احتمالين : الاحتمال الأول هو

---

(١) هذه الحادثة التي جرت في زمن فرعون جرى مثلها في زمن محمد ﷺ ، فقد أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينا رسول الله يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال : « أتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله » .

قوله : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ أي إن كان موسى كاذباً فإنه وحده يتحمل تبعة كذبه ، لقد قدم هذا المؤمن افتراض الكذب على موسى ليبعد عن نفسه تهمة الإيمان وأنه مؤيد له .

أما الاحتمال الثاني فقوله : ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الذي يَعِدُكُم ﴾ أي إن يكن صادقاً في نبوته يصبكم ما وعدكم به من العذاب إن بقيتم على عقيدتكم فلا فائدة لكم بقتله بل إنكم تزيدون في عقوبة ربكم عليكم . ويمكن أن يكون المعنى : إن آمنتم بصدقه يصيبكم بعض ما وعدكم به من الخير ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ إن الله لا يوفق للحق ولا يؤيد من هو مسرف في المعاصي والخطايا ، كذاب بادعاء النبوة . هذا القول تأييد لموسى ، فلو كان موسى مسرفاً كذاباً لما أيده الله بالمعجزات الباهرة بل كان قد خذله ، كما أن في هذا القول تعريضاً بفرعون لأنه كان مسرفاً في القتل والظلم ، كذاباً بادعاء الألوهية ووجود شريك لله .

ويتابع هذا المؤمن من آل فرعون نصحه لقومه ولكنه يجابه بمعارضة فرعون له :

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٢٩) .

هذا المؤمن يذكِّر قومه بما هم فيه من الملك ليشكروا الله على نعمه عليهم ولا يتمادوا في كفرهم فيقول لهم : يا قوم لكم السلطان اليوم والملك عالين وغالبين بني إسرائيل في أرض مصر ﴿ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ فمن يدفع عنا عذاب الله وسطوته إن حلَّ بنا ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ :

مَا أُرِيكُمْ إلَّا مَا أَرَى ﴾ أي قال فرعون مجيباً هذا المؤمن الناهي عن قتل موسى : ما أشير عليكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلّا ما أراه مناسباً وهو قتل موسى ﴿ وَمَا أَهدِيكُمْ إلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وما أدعوكم إلّا إلى طريق الحق والصواب .

ثم يحذر هذا المؤمن قومه من عذاب الله في الدنيا والآخرة إن أصروا على كفرهم وطغيانهم :

﴿ وَقَالَ الذي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِين مِنْ بَعْدِهِم وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٣٠ ـ ٣٣) .

هذا المؤمن يحذر قومه قائلاً : إني أخاف عليكم إن قتلتم موسى أن يحل بكم ﴿ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾ أي مثل يوم عذاب الأمم الماضية ، والأحزاب جمع حزب وهو الطائفة من الناس التي تجتمع على رأي واحد ، والأحزاب هنا هم الطوائف التي اجتمعت على محاربة الأنبياء ، وقد ذكر القرآن بعض هذه الطوائف بقوله : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي مثل حال أو مثل جزاء الذين قاموا بتكذيب الأنبياء ومحاربتهم وهم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والذين من بعدهم كقوم لوط ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ﴾ أي لا يعاقب الله العباد بدون ذنب اقترفوه ، فعقاب الله لهؤلاء كان عدلاً بسبب إجرامهم وكفرهم ، وتأمل كيف نفى سبحانه إرادة الظلم عن نفسه ، ومن كان بعيداً عن إرادة الظلم كان عن الظلم أبعد .

ويتابع مؤمن آل فرعون قوله : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ ويوم التنادي هو يوم القيامة لأن الناس فيه ينادون بعضهم بعضاً للاستغاثة من جراء ما يرون من أهوال يوم القيامة[1] ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي يوم تشرعون بالفرار من هول عذاب جهنم ولكن لا فرار لكم ، أو يوم تذهبون وتنصرفون بعد موقف الحساب إلى جهنم ﴿ مَا لَكُم مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ما لكم من ناصر ينصركم ويعصمكم من عذاب الله ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ومن يخذله الله فلم يوفقه للرشد فما له من موفق يوفقه له .

ثم يذكرهم هذا المؤمن بموقفهم وموقف من كان قبلهم من رسالة يوسف عليه السلام ، مع تحذيرهم من التمادي في الباطل :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ في شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٣٤ ، ٣٥) .

فهذا المؤمن يقول لقومه : ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى ﴿ بالبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الواضحات والدلالات الظاهرات على نبوته وصحة رسالته ﴿ فَمَا زِلْتُم في شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أي فبقيتم مرتابين فيما أتاكم به يوسف ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ حتى إذا توفاه الله ﴿ قُلْتُم : لَنْ

(١) جاء في القرآن أن أهل النار ينادون أهل الجنة مستغيثين : ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ وأن أهل الجنة ينادون أهل النار معاتبين إياهم ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ .

يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ أي قلتم لن يرسل الله من بعد موته رسولاً ، وهذا القول ليس تصديقاً بنبوة يوسف ، وإنما هو تكذيب بنبوة من يجيء بعده من الرسل ، فأضافوا تكذيب نبي مضى إلى تكذيب نبي آتٍ ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في المعاصي شاك في حقيقة رسالة رسله ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ[١] بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويخاصمون حجج الله بغير دليل وحجة معهم من الله ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي عظم بغضاً عند الله وعند الذين آمنوا هذا الجدال بالباطل ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ الطبع : الختم ، بمعنى أن يقفل على القلوب باب العقل والفهم فلا تقبل الحق ، والمعنى : وكما ختم الله على قلوب هؤلاء المجادلين بالباطل ، كذلك يختم الله على كل قلب متكبر على الله فلا يوحده ، ولا يصدق بما جاء به الرسل من الهدى ، جبار : أي متعظم عن اتباع الحق ، عديم الشفقة على عباد الله .

ويبدو أن حجة هذا المؤمن من آل فرعون كان لها من التأثير على قوم فرعون بحيث لم يستطع فرعون تجاهلها ، لذا اتخذ لنفسه مخرجاً بما بينته الآيات التالية :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ[٢]

---

(١) آيات الله : هي حجج الله التي أنزلها على أنبيائه وفيها الدلائل على وحدانية الله وصدق أنبيائه ، سواء أكانت هذه الحجج نصوصاً من كتاب الله ، أو كانت معجزات جاءت على أيدي هؤلاء الأنبياء مما أيدهم الله بها .

(٢) إن قيل : ما فائدة تكرار « أسباب » مع أن القول بأسباب السموات كان كافياً . قيل في ذلك إنه إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان ذلك تفخيماً لشأنه .

السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰه مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (٣٦ ، ٣٧) .

ففرعون بلغ من عتوه وغروره أن أمر وزيره هامان أن يبني له ﴿ صرحاً ﴾ وهو القصر العالي الشاهق الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد ، طلب ذلك من وزيره وهو على يقين من عجزه ، ولكنه أراد أن يموّه على عقول قومه ، وقد بيّن فرعون الغاية التي يقصدها : ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى ﴾ أي لعلي أصل إلى أسباب السماوات وهي طرقها أو أبوابها أو منازلها فأستطيع رؤية إلٰه موسى وأطلع على حاله ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ وإني لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعي من أن له إلٰهاً في السماء ﴿ وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ وهكذا حُسِّن وجُمِّل في نظر فرعون قبيح عمله فرآه حسناً ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ وأعرض فرعون عن طريق الهداية ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ وما تدبير فرعون السيء هذا ومكره إلّا في خسران وضلال .

أمام هذا العناد من فرعون وإصراره على الكفر تابع هذا المؤمن من آل فرعون النصح لقومه مبيناً لهم تفاهة الحياة الدنيا :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٨ ـ ٤٠) .

فهذا المؤمن يقول لقومه : ﴿ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي امتثلوا أمري واسلكوا طريقي أرشدكم إلى طريق الصواب والهدى . بينما كان فرعون يقول من قبل ﴿ وَمَا أهديكم إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ فهذا هو التحدي

الصريح بكلمة الحق التي لا يخشى فيها هذا المؤمن سلطان فرعون وجبروته .

ويتابع المؤمن قوله : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّما هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أي هذه الحياة يتمتع بها الإنسان قليلاً ثم تنقطع وتزول ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ ﴾ وأن الحياة الآخرة هي دار البقاء والدوام التي يستقر بها البررة في جنات النعيم فلا يموتون ولا يزول النعيم عنهم . فالدنيا منقضية والحياة الآخرة باقية دائمة ، والدائم خير من المنقضي . ثم يضيف المؤمن قوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي من عمل بمعصية الله في هذه الحياة الدنيا فلا يجزيه الله في الآخرة إلا سيئة مثلها وذلك بأن يعاقبه عليها ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ومن عمل بطاعة الله في الدنيا سواء كان رجلاً أو امرأة وهو مصدق بوجود الله ووحدانيته ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُون الجَنَّةَ ﴾ فهؤلاء يدخلون في الآخرة الجنة التي هي دار النعيم ﴿ يُرْزَقُون فِيهَا بِغَيْرِ حِسابٍ ﴾ أي يرزقهم الله في الجنة من ثمارها وما فيها من نعيم رزقاً لا انقضاء له ولا نفاد .

وأخيراً يختم هذا المؤمن نصحه لقومه بصراحة وجرأة مظهراً إيمانه :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونني إِلَى النَّار . تَدْعُونني لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ . لاَ جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونني إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيَا وَلاَ في الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٤١ ـ ٤٤) .

هذا المؤمن يقول لقومه : ما لي أدعوكم إلى النجاة من عذاب الله وذلك بالإيمان به واتباع رسوله موسى فيما جاءكم به من الهدى من عند

ربه ، وتدعونني إلى عمل أهل النار لأعذب بها يوم القيامة ﴿ تَدْعُونني لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ ﴾ تدعونني للكفر بوحدانية الله وإشراك آلهة معه في العبادة ليس لي بها علم بربوبيتها لأنها آلهة من تسميات البشر وأوهامهم ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ ﴾ وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد القوي الذي يغلِبُ ولا يُغلب ، الغفار لذنوب العباد إذا تابوا عنها ﴿ لَا جَرَمَ[1] أَنَّما تَدْعُونني إلَيْهِ ﴾ أي حقاً إن الذي تدعونني إليه من عبادة الآلهة والأصنام ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ في الدُّنْيَا وَلاَ في الآخِرَةِ ﴾ أي هذا المعبود لا يستجيب دعاء من يدعوه ، أو بمعنى : ليس لهذا المعبود دعوة يدعو بها العباد إلى عبادته ، فهو لا يدعي الربوبية ، وفي الآخرة يتبرأ كل معبود من عابده ، هذا وقد كان فرعون يدعو الناس إلى عبادة الأصنام والبقر ، ثم دعاهم إلى عبادة شخصه فقال : أنا ربكم الأعلى .

ويتابع هذا المؤمن مخاطباً قومه : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ وأن مرجعنا ومنقلبنا بعد مماتنا إلى الله ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وأن المستكثرين من معاصي الله ﴿ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ هم أصحاب جهنم يعذبون بنارها يوم القيامة ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ فستذكرون أيها القوم إذا عاينتم عقاب الله وعذابه حقيقة ما أخبركم به ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمري إِلَى اللَّهِ ﴾ وأسلم أمري إلى الله وأتوكل عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ إن الله عالم بأمور عباده لا يخفى عليه شيء .

ولما تمم هذا المؤمن نصحه لقومه ، وأظهر إيمانه قصدوا قتله فهرب منهم ونجاه الله من مكرهم ، وحلَّ عذاب الله بفرعون وقومه :

---

(١) لا جرم : لا منفصلة عن جرم وهي نفي لما سبق من الكلام أي لا لدعوتكم لي إلى الكفر والشرك وتأتي بعدها ـ جرم ـ وهي فعل بمعنى حقَّ .

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٥ - ٤٦) .

فالله سبحانه وقى هذا المؤمن ما أرادوا به من المكر السيء ، وكان من جملة من نجاه الله مع بني إسرائيل ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أي وحلّ ونزل بآل فرعون العذاب السّيء وهو إغراقهم في البحر ، والمراد بآل فرعون أتباعه وقومه الذين دانوا له بالطاعة . وبجانب غرقهم في البحر هناك عذاب آخر لهم في الدنيا ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي تُعرض أرواحهم على النار صباحاً ومساء ما دامت الدنيا قائمة إلى أن تقوم القيامة إذلالاً لهم وتوبيخاً . هذه الآية تدل على وجود عذاب القبر في الدنيا بعد الممات وهو ما يسمى بعالم البرزخ . ويدل على ذلك الآية التي جاءت بعدها : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أي يوم تقوم القيامة يُقال للملائكة أدخلوا قوم فرعون وأتباعه أشد العذاب في جهنم ، من هذا يثبت أن النار التي يُعرض عليها آل فرعون صباحاً ومساء هي في الدنيا وليس المراد منها يوم القيامة ، فإذا جاءت الآخرة يدخلون أشد العذاب .

هذا وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله : « أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حق »[١] .

---

(١) رُوي هذا الحديث بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ

شرح المفردات

يتحاجُّون : يختصمون .

مُغْنُون عنَّا : متحملون عنا .

يوم يقوم الأشهاد : يوم القيامة حيث تشهد الملائكة والرسل والمؤمنون على أعمال العباد .

لهم اللعنة : لهم الطرد من رحمة الله .

سُوءُ الدار : المراد بها جهنم .

لأولي الألباب : لأصحاب العقول السليمة .

العشي : أواخر النهار .

الإبكار : أوائل النهار .

بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ
بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ
مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ
وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ
﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ
﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي
سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ
تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ
صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

شرح المفردات

يجادلون : يخاصمون .

سلطان : حجة وبرهان .

الساعة : المراد بها القيامة .

داخرين : أذلاء .

تُؤفكون : تُصرفون عن الحق .

قراراً : مستقراً لكم .

فتبارك الله : تعالى وتمجد وكثر خيره .

رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

تابع سورة غافر

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما يكون من نزاع وخصام بين الكفار يوم القيامة وهم يعذبون في نار جهنم :

﴿ وَإِذْ يَتحاجُّونَ في النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِين اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ (٤٧ ، ٤٨) .

فالله سبحانه يقول : واذكر لهم يا محمد حين يختصم الرؤساء والأتباع وهم في نار جهنم ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ فيقول الأتباع للرؤساء والأسياد ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ إنا كنا لكم أتباعاً ننقاد لأوامركم ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ ﴾ فهل تقدرون أيها الرؤساء والكبراء أن تدفعوا عنا قسماً من العذاب . وهؤلاء الأتباع الضعفاء يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصدهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم ، فيجيب هؤلاء الكبار : ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أي إننا كلنا واقعون في هذا العذاب ، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه أولاً عن أنفسنا ، ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ إن الله قد قضى بين عباده ، وأعطى كل واحد منهم ما يستحقه من نعيم أو عذاب .

هذه ثورة على التبعية العمياء يوحي بها القرآن للمستضعفين في الأرض ضد المستكبرين والطغاة ، فالانصياع لهؤلاء السادة المستكبرين فيما يدعون إليه من الباطل يجر إلى عذاب الله في الدنيا والآخرة . فالإنسان الذي ميزه الله بالعقل والكرامة والحرية عليه ألا يتنازل طوعاً عن هذه الميزات إرضاء لأحد بل عليه أن يسلك سبيل الله ، سبيل الحق والعدل مهما صادف في ذلك من تضحيات ، فلو تكتل الضعفاء والمقهورون وكانوا يداً واحدة أمام الطغاة وجابهوهم بكلمة الحق لكان في ذلك سدٌّ منيع أمام طغيانهم وفسادهم .

ويتابع القرآن فيذكر ما يقاسي الكفار من شدة العذاب في النار يوم القيامة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا : بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ ﴾ (٤٩ ، ٥٠) .

فالله سبحانه يقول إن الكفار في جهنم يستغيثون من عظيم ما هم فيه من البلاء بحفظة جهنم قائلين لهم : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ العذابِ ﴾ أي ادعوا ربكم لنا ليخفف عنا يوماً واحداً من العذاب مقدار يوم واحد من أيام الدنيا لأن في الآخرة يوماً لا ليل فيه ، فيجيبهم خزنة جهنم ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالبَيِّنَاتِ ﴾ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أي ألم تجئكم في الدنيا رسل الله بالبينات والحجج التي تدل على وحدانية الله فتوحدوه وتؤمنوا به وتتبرأوا مما دونه من الآلهة ﴿ قَالُوا : بَلَى ﴾ قالوا : نعم قد أتتنا رسل الله بذلك ﴿ قَالُوا : فَادْعُوا ﴾ أي قالت لهم خزنة جهنم ادعوا إذن ربكم فإنا لا ندعو لمن كفر بالله وكذّب رسله بعد مجيئهم بالحجج

الواضحة ، ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً ﴿ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ أي وما دعاء الكافرين إلاّ في ضياع وبطلان فهو لا ينفع ولا يجدي شيئاً .

وبعد مشهد العذاب للكافرين يأتي الوعد الإلّهي لرسل الله وللمؤمنين بالنصر في الدنيا والعاقبة الحسنة في الآخرة :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِين آمنوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (٥١ ـ ٥٢) .

فالله سبحانه يؤيد بنصره رسله ومن اتبعهم من المؤمنين في الدنيا على من ناوأهم وعاداهم ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[(١)] أي وينصرهم كذلك يوم القيامة بأن ينجيهم من العذاب يوم يشهد الشهود العدول على من كفر وعصى .

نعم لقد صدق الله وعده فنصر رسوله محمداً ومن معه من المؤمنين على أعدائهم ، ودانت لرسول الله محمد ﷺ جزيرة العرب بكاملها ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ثم قام خلفاؤه من بعده فبلّغوا دين الله للناس كافة وفتحوا البلاد حتى وصلوا داخل فرنسا وانتشرت دعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) الاشهاد : جمع شاهد والمراد بهم الذين يقومون يوم القيامة للشهادة على أعمال العباد من ملائكة وأنبياء ومؤمنين . أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا . وأما الأنبياء فإنهم يحضرون يوم القيامة ليشهدوا على الأمم بالتصديق والتكذيب قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ وأما المؤمنون فإنهم يشهدون على الناس أيضاً يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

ومما لا ريب فيه أن هذا الوعد الإلّهي بنصر الرسل والمؤمنين من شأنه أن يبعث اليقين والقوة والجرأة في قلب كل مؤمن يدعو إلى دين الله ويناضل في سبيل ذلك موقناً بنصر الله وتأييده .

أما مصير الظالمين يوم القيامة فهو سيّىء للغاية وهو ما عبرت عنه الآية : ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمينَ مَعْذِرَتُهُم ﴾ فهم لا ينفعهم اعتذارهم عما فرَّطوا في الدنيا من ظلم ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ ولهم الإبعاد والطرد من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ولهم الدار السيئة وهي جهنم .

وبعد أن بيّن الله أنه ينصر رسله والمؤمنين في الدنيا والآخرة ، ضرب المثل في ذلك بحال موسى الذي نصره الله على فرعون مع تطمين محمد ﷺ بأن الله ناصره كما نصر الأنبياء قبله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَني إسْرَائيلَ الكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَى لأولي الألْبَابِ . فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإبْكَارِ ﴾ (٥٣ ـ ٥٥) .

فالله أعطى موسى الهداية إلى الحق ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إسْرَائِيلَ الكِتَابَ ﴾ أي وجعل سبحانه التوراة إرثاً موروثاً لبني إسرائيل بعد وفاة موسى يتوارثونها خلفاً عن سلف ﴿ هُدًى وَذِكْرَى لأولي الألْبَابِ ﴾ وهذه التوراة هدى لبني إسرائيل من الضلالة وبياناً لأمر دينهم ، وتذكيراً وموعظة لأصحاب العقول السليمة . تأمل كيف نوّه الله بأصحاب العقول لأنهم هم الذين يميزون بين الحق والباطل ، وهم أسرع الناس استجابة لهدى الله ، وما انحرف المنحرفون إلاّ عن فساد وضعف في عقولهم لعدم تمييزهم بين ما ينفعهم وما يضرهم .

ثم يخاطب الله رسوله محمداً : ﴿ فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدِ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي اصبر على أذى الكفار والمشركين وبلِّغ قومك ما أُمرت بتبليغهم مما أنزله عليك

من الوحي ، وأيقن بحقيقة وَعْدِ الله الذي وعدك به من نُصرتك ونصرة من صدقك وآمن بك ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ واطلب الغفران من ربك ؛ ولكن يُقال إن الأنبياء معصومون عن الذنوب ، قيل المراد بذلك محض التعبد ، أو تعليم من محمد ﷺ لأمته بطلب الاستغفار ، أو الاستغفار لذنوب أمته ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي نزّه ربك عن كل ما لا يليق به من الصفات والأفعال مقترناً ذلك بالشكر والثناء عليه ﴿ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ والعشي هو وقت زوال الشمس إلى الليل أو آخر النهار ، والإبكار : هو وقت طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس ، بمعنى أول النهار .

ثم ينتقل القرآن إلى ذم الذين يعرضون عن الحق ويسيرون في درب الباطل :

﴿ إِنَّ الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٥٦) .

فالذين يجادلون ، أي يخاصمون ﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي في العلامات الدالة على وحدانية الله ، أو وحيه الإلّهي المنزل على أنبيائه في الكتب السماوية ، أو ما أظهره سبحانه على أيدي رسله من المعجزات كل ذلك يفهم من كلمة (آيات الله) ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُم ﴾ بغير حجة أو دليل جاءهم من عند الله ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِم إِلَّا كِبْرٌ ﴾ إن بمعنى : ما ، النافية ، والمراد بالصدور : القلوب . والكبر : هو التكبر والتعاظم . والمعنى : ما في صدورهم إلّا تكبر عن الحق الذي أتيتهم به يا محمد حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله إياه والكرامة التي خصك بها في النبوة ، فكفار قريش يريدون أن تكون الرئاسة بيدهم ، وباتباعهم للنبي محمد ﷺ لا تبقى لهم رئاسة ، وهذا يفسّر معارضتهم لرسالة محمد ﷺ ، ولكن هيهات كما تقول الآية : ﴿ مَا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ أي ما هم ببالغي تلك الرئاسة والوجاهة التي قصدوها لأن الله مذلهم بسبب إصرارهم على الكفر ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ فالتجئ يا محمد إلى الله من شر هؤلاء المجادلين بالباطل إنه هو السميع لما يقولونه من أباطيل ، البصير بما يعملونه ، لا يخفى عليه شيء .

ثم يبين القرآن بعد ذلك مدى قدرة الله العظيمة التي لا تعجز عن إعادة الإنسان حياً يوم القيامة :

﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ولا المُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ . إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٧ ـ ٥٩) .

هذه الآيات مرتبطة بما قبلها فهي ردٌّ على أولئك المجادلين في آيات الله ومن جدالهم إنكارهم للبعث ، وإعادة الناس أحياء يوم القيامة ، فهذه الآيات تقول : إن ما أبدعه الله وأنشأه من السموات والأرض من غير مثال سبق أعظم من إبداعه وإنشائه الناس ، لأن الإنسان مخلوق واحد من بين عشرات الألوف من المخلوقات من الحيوان والطير والحشرات والأسماك وكل مخلوق فيه من الأسرار ما لا يحصى ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي أن أكثر الناس لا يدركون هذه المقارنة بين خلق السموات والأرض وخلق الناس لقلة تبصّرهم وعدم استعمال عقولهم ، وكان من المفروض أن يدركوا أن إعادة خلق الإنسان حياً يوم القيامة هيّن على الله .

فمنذ أربعة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ كان العرب وغيرهم من الأمم لا يعرفون شيئاً عن عظمة الكون واتساع الكرة الأرضية ، وما تحتويه من مخلوقات شتى ، بسبب قلة المواصلات ، وما كانوا يدركون إلاّ المخلوقات التي هي على مرأى من أنظارهم ، وما كانوا يرون إلاّ القليل . وكان الفضاء الخارجي آنذاك مجهولاً عند الناس سوى ما يرونه من أضواء خافتة في السماء تبلغ الآلاف بالنظر المجرد ، ولكن بعد اختراع المناظير القوية التي

كشفت عن عظمة الفضاء الخارجي وما فيه من بلايين النجوم وأحجامها التي تبلغ ملايين حجم الأرض وما فيها من كواكب ضخمة ومذنبات ، ظهر جلياً عظمة قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوٰتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ ثم كان التعبير القرآني عقب ذلك مدهشاً ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ نعم إن أكثر الناس لم يكونوا يعلمون حقائق الفضاء في عصر القرآن ثم تبدت لهم هذه الحقائق تباعاً فيما بعد، بعد أكثر من ألف سنة من نزول القرآن عند اختراع المناظير القوية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِيرُ ﴾ لقد مثّل الله الكافر بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، فالكافر لا يرى حجج الله ولا يفكر فيها ولا يعتبر بها كي يدرك وحدانية الله وقدرته على خلق كل شيء فيؤمن به ، فمثل الكافر كمثل الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ، أما المؤمن فيرى بعينيه ، ويدرك بقلبه حجج الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، فيتعظ ويسلك سبيل الله فهو بهذا بصير ، وعلى هذا فالمؤمن والكافر لا يتماثلان في المنزلة والقيمة الإنسانية .

ثم يتابع القرآن قوله : ﴿ وَالَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ولا المُسِيءُ ﴾[1] هنا عطف جملة على جملة مع حذف الفعل للدلالة عليه ويكون المعنى : لا يتماثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع المسيء وهو الكافر بربه العاصي له ﴿ قَليلاً مَا تَتَذَكَّرون ﴾ قليلاً ما تتذكرون أيها الناس حجج الله فتعتبرون بها وتتعظون ، وتدركون ما أنتم عليه من خطأ في اتخاذكم شريكاً لله ، وإنكاركم قدرة الله في إحياء الموتى يوم القيامة ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ إن الساعة التي تقوم فيها القيامة ويحيي الله فيها الموتى للثواب والعقاب لآتية أيها الناس لا شك في مجيئها ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالبعث بعد الموت يوم

(١) المراد بالمسيء هنا المسيئون فهي من الألفاظ المفردة لفظاً ، الجمع معنى .

القيامة . نعم هذه الحقيقة تتبدى أشد ما يكون في عصرنا الحاضر بسبب طغيان المذاهب المادية ، وسريان الإلحاد المستشري بين كثير من الناس .

وبعد أن بيّن القرآن أن يوم القيامة حق وصدق كان من الطبيعي أن الإنسان لا ينفعه في ذلك اليوم إلاّ طاعة الله وعبادته ، ومن أشرف أنواع العبادات الدعاء والتضرع لله وحده ، ولهذا أمر به سبحانه فقال :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِين يَسْتَكْبِرُون عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٦٠) .

قيل في معنى الدعاء في هذه الآية : العبادة ، وقيل : الدعاء هو السؤال بجلب النفع ودفع الضر .

فإذا كان الدعاء بمعنى العبادة فيكون المعنى : وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم ﴿ إِنَّ الَّذِين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ إن الذين يتكبرون عن إفرادي بالعبادة ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ ﴾ سيدخلون دار العذاب في الآخرة أذلاء حقيرين .

وإذا ركزنا على الدعاء بمعنى السؤال فيكون المعنى : ادعوني وأخلصوا لي الدعاء ولا تلجأوا إلى غيري في الدعاء من أوثان وأصنام وغير ذلك ، فالدعاء بهذا المعنى نوع من العبودية لله لأنه اعتراف الإنسان بالذلة والحاجة أمام خالقه ، فكأن تارك الدعاء إنما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبودية لله سبحانه .

هذا وقد ورد عن النبي محمد ﷺ قوله : « إن الدعاء[١] هو العبادة »[٢] وقال : « الدعاء مخ العبادة »[٣] .

---

(١) الدعاء لا يقتصر على الطلب كقول الداعي : اللهم ارحمني واغفر لي بل قد يكون حمداً وشكراً لله ، قال تعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة .

(٣) أخرجه الترمذي .

فدعاء الإنسان ربه دليل على يقينه بأن الذي يدعوه هو الإلّه المعبود بحق ، القادر على كشف الضر عنه ، وإعطائه ما يبتغيه من خير ، فالإنسان ضعيف أمام متقلبات الحياة ، معرض للأخطار والأمراض والخسارة ، وفقدان الأحبة ، هذه الأمور يكون وقعها شديداً عليه بدون الاعتماد على الخالق ، فيجتاحه الحزن والتشاؤم واليأس ، ويصبح عرضة للأمراض النفسية التي تنعكس عليه أمراضاً جسدية كما أقر بذلك الطب الحديث .

فيقين الإنسان بأن الله يستجيب دعاءه ويكشف الضر عنه يعطيه طمأنينة في القلب ، وسكينة في النفس لشدّ ما يحتاجها الإنسان أمام المصائب .

لقد وعد الله المؤمن باستجابة الدعاء ، ولكن قد يدعو الإنسان كثيراً فلا يستجاب له ، وقد ذكر العلماء شروطاً لاستجابة الدعاء مقتبسة من هدي القرآن والسنة ، من هذه الشروط : الإخلاص في الدعاء ، وأن لا يدعو الإنسان وقلبه مشغول بغير الدعاء ، وأن لا يكون في الدعاء قطيعة رحم ، وأن يكون قائماً بطاعة الله ، وأن لا يستعجل إجابة الدعاء فيقول : دعوت ربي فما استجاب لي ، وأن لا يدعو بإثم ، وأن يكون الداعي مطعمه ومشربه من الحلال ، فالمطعم والمشرب الحرام يحول دون إجابة الدعاء.

وبعد أن دعا القرآن الناس أن يتوجهوا إلى الله وحده في الدعاء والعبادة ذكر بعد ذلك بعض مظاهر قدرة الله وفضله العميم على الناس :

﴿ اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ . ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إلَهَ إلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٦١ ـ ٦٣) .

فالله يقول : إنه جعل لنا الليل لنهدأ فيه ونستريح من عناء العمل ، كما جعل لنا النهار مضيئاً لنعمل فيه ، إن الله لصاحب فضل عظيم على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرونه بالإيمان به وحده ، وبالطاعة والإخلاص في

العبادة . وهنا لا بد من وقفة تأمل عند قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ فالسكون في الليل ضرورة لكل حي ، ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية ، فلا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون بل لا بد من ليل ، فالخلية التي تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بالقسط الضروري من السكون . أما التعبير القرآني الذي جاء عقب ذلك ﴿ والنَّهارَ مُبْصِراً ﴾ فهو من باب إسناد الشيء إلى وقته لأن النهار وقت الإبصار ، وفيه يبصر الناس ، ويكون المعنى : وجعل لكم الليل وقتاً للإبصار ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي إن الذي فعل هذه الأشياء هو الله ربكم الواحد خالق كل شيء ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ لا إله غيره ، ولا رب سواه ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أفك : صرف ، أي من أي وجه تُصرفون عن عبادة الله وحده ، وتعبدون غيره من أصنام لا تخلق شيئاً وهي من صنع الإنسان ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي كما ضل هؤلاء المشركون من قوم محمد بعبادة غير الله ، كذلك صُرِفَ عن عبادة الله من كان قبلهم من الأمم فعبدوا غيره بلا دليل وبرهان ، بل لمجرد الهوى والجهل .

ويتابع القرآن تعداد نعم الله على الإنسان التي تستوجب عبادته وحده بإخلاص والثناء عليه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً والسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ . هُوَ الحَيُّ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٦٤ - ٦٥) .

فالله سبحانه جعل للناس ﴿ الأَرْضَ قَرَاراً ﴾ أي يستقرون عليها ، ويسكنون فوقها ويتصرفون فيها ﴿ والسَّماءَ بناءً ﴾ أي وجعل الله السماء بناء ورفعها فوقكم - أيها الناس - سقفاً قائماً ثابتاً بغير عَمَدٍ ترونها ﴿ وَصَوَّرَكُمْ

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي خلقكم الله ـ أيها الناس ـ في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور متناسبي الأعضاء ، وفي أحسن تقويم بأن جعل هاماتكم مرفوعة ولم يجعلها منكسة كالبهائم ﴿ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ وأعطاكم من فضله سبحانه طيبات المآكل والمشارب ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي ذلك الذي تفضل بهذه النعم هو الله ربكم الذي لا تصلح الربوبية لغيره ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ فتعالى وتقدس رب جميع الخلق ومالكهم ﴿ هُوَ الحَيُّ ﴾ الذي لا يموت ، الدائم الحياة ﴿ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحق إلاّ هو سبحانه ، ولا تصلح الألوهية إلاّ له ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فاعبدوه مخلصين له الطاعة لا تشركوا في عبادته شيئاً سواه ، قائلين : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي مثنين على الله بتمجيده وتعظيمه ، فهو المالك والمنعم على الخلق أجمعين .

وقد كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال « لا إله إلاّ الله » أن يُتبع ذلك فيقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ آخذين ذلك من سياق هذه الآيات الداعية إلى الثناء على الله عقب الإقرار بوحدانيته .

وبعد تبيان صفات العظمة والجلال لله يأمر الله سبحانه رسوله محمداً بدعوة قومه إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان والتوجه إلى عبادة الله وحده :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦٦) .

أي قل يا محمد للمشركين من قومك إن الله نهاني أن أعبد غيره من الآلهة التي تدعون إليها ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ حين جاءتني الآيات الواضحات من عند ربي وهي آيات القرآن الكريم التي أنزلها عليَّ المتضمنة الأدلة العقلية على تفرّد الله بالعظمة والحكمة ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ وأمرت أن أخضع لمالك الخلق وسيدهم بالطاعة دون غيره .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ
وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ
وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن
نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

شرح المفردات

نطفة : ماء الرجل وماء المرأة .

تَبْلُغوا أشدكم : تبلغوا كمال قوتكم وعقلكم .

قضى أمراً : أراد إيجاد أمر .

الحميم : الماء الشديد الحرارة .

يُسجرون : يُحرقون .

ضلُّوا عنا : غابوا وتخلوا عنا .

تمرحون : تبطرون .

مثوى : مأواهم ومقامهم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم
مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ
فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾
وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ
وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾
فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ
سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

شرح المفردات

المبطلون : المتمسكون بالباطل .

حاق بهم : أحاط أو نزل بهم .

رأوا بأسنا : عاينوا عذاب الله .

سُنَّة الله : نظام الله في خلقه .

خلت : مضت .

تابع سُورَة غَافِر

ثم يورد القرآن مظهراً من مظاهر قدرة الله متمثلة في خلقه للإنسان وتدرجه في التكوين الذي هو معجزة من معجزات الخلق :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ، وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ . هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٦٧ - ٦٨) .

فالله سبحانه يقول بأنه خلق الجنس البشري من تراب ، وهذه حقيقة معترف بها ؛ فإن النطفة وهي ماء الرجل وماء المرأة التي يتكون منها الجنين هي وليدة عملية التغذية التي يتغذى بها الإنسان من النبات والحيوان ، وأصل هذه التغذية ومنشؤها هو التراب .

وبعد أن يقذف الرجل منيه المحتوي على ملايين الحييات المنوية تتسابق هذه لتنال بويضة الأنثى ، وأحد هذه الحييات يمتزج بالبويضة وهذه أول عملية تكوين الجنين ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وحالما تخصب البويضة بإحدى الحييات المنوية تتكون النطفة الأمشاج ومنذ تلك اللحظة تبدأ بالانشطار : فتنشطر الخلية إلى خليتين ، والخليتين إلى أربع وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت وفي غضون خمسة أيام أو أسبوع تكون النطفة الأمشاج قد وصلت إلى الرحم فتنشب فيه وتعلق بجداره ، ومن ذلك سميت علقة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي يمد في آجالكم لتبلغوا سن الكمال في القوة والعقل ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ﴾ أي ثم لتصبحوا في سن الهرم والشيخوخة ﴿ وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ أي يموت قبل سن الشباب والشيخوخة ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ ولتصلوا إلى وقت محدد لانتهاء

آجالكم لا تتجاوزونه وهو الموت ، فلكل مخلوق أجلٌ قَدَّرَهُ اللَّهُ فمتى بلغ أجله تنتهي حياته ، وهذا الأجل المسمى قد يكون في أي مرحلة من مراحل الحياة : طفولة ، أو شباباً ، أو شيخوخة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ولكي تدركوا الأشياء على حقيقتها وتعلموا دلائل قدرة الله وان لا إلّه غيره .

ثم يبين القرآن عظمة القدرة الإلّهية : ﴿ هُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ فهو سبحانه يحيي ما كان ميتاً ويميت ما كان حيّاً ﴿ فَإذا قَضَى أمْراً ﴾ فإذا أراد أن يكوِّن أمراً من الأمور ﴿ فإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فهذا تمثيل لتأثير قدرة الله سبحانه على الكائنات ، وتصوير لسرعة إيجادها بناءً على كلمة ﴿ كن ﴾ فيكون ما يشاء الله أن يكون من مخلوقات وكائنات وأجرام سماوية ، ولا نعلم تعبيراً موجزاً يمثل عظمة الله وكمال القدرة الإلّهية كهذا التعبير : ﴿ كن فيكون ﴾ .

وبعد بيان كمال القدرة الإلّهية التي لا تبقي شكّاً لمرتاب تأتي الآيات مهددة المشركين بالعذاب الأليم يوم القيامة :

﴿ ألَمْ تَرَ إلَى الَّذِين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ اللَّهِ أنَّى يُصْرَفُونَ . الَّذِينَ كَذَّبُوا بالكِتَابِ وَبِمَا أرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إذِ الأغْلالُ في أعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ . في الحَمِيمِ ثُمَّ في النَّارِ يُسْجَرُون ﴾ (٦٩ ـ ٧٢) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ ألَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آيَاتِ اللَّهِ ﴾ هذا الاستفهام يدعونا للنظر كأنه سبحانه يقول : تأمل موقف هؤلاء المشركين الذي يدعو للدهشة والاستغراب ، أفبعد الذي بيّنه الله من عظمة قدرته لا يزالون يخاصمونك في حجج الله الواضحة الدالة على وحدانيته ﴿ أنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ كيف يتحولون عن الهداية ويعدلون عن الرشد ﴿ الذين كَذَّبُوا بالكِتَابِ ﴾ الذين كذبوا بالقرآن ﴿ وَبِمَا أرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ وبما أرسل الله به رسله من الدعوة إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له ، والتبرؤ من الألهة

والشركاء له ، والإقرار بالبعث يوم القيامة . وهذا تأكيد على وحدة الرسالة الإلّهية إلى رسله من البشر ، فتكذيب المشركين بالقرآن هو تكذيب بكافة رسل الله ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُون ﴾ هذه الجملة فيها تهديد ووعيد للمشركين ، نعم فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم بالقرآن ﴿ إِذِ[١] الأَغْلَالُ[٢] في أَعْنَاقِهِمْ والسَّلاسل[٣] يُسْحَبُون ﴾ هذا هوالتهديد الربّاني حيث ستوضع الأغلال والسلاسل في أعناقهم ، ثم يسحبون بالسلاسل من قِبَلِ ملائكة العذاب ﴿ في الحَمِيمِ ﴾ أي إلى الماء الذي بلغ الغاية القصوى من الحرارة ﴿ ثُمَّ في النَّارِ يُسْجَرُون ﴾ ثم بعد ذلك يحرقون في النار .

ثم تأتي الأيات وفيها تبكيت للمشركين وتوبيخ لهم على إشراكهم بالله وتكبرهم في الأرض الذي أدى بهم إلى أسوأ مصير :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ . ذَلِكُم بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنْتُم تَمْرَحُونَ . ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ ﴾ (٧٣ ـ ٧٦) .

فالمشركون يُقال لهم يوم القيامة : ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُم تُشْرِكُون . مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شريكة لله متجاوزين في ذلك عبادة الله وحده ﴿ قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ﴾ هكذا أجاب المشركون بأن

---

(١) إذ : ظرف يدل على الاستقبال وعبر بذلك على تحقق وقوع العذاب .

(٢) الأغلال : جمع غل وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه ، والغل يقال للقيد الذي يقيد به فيجعل الأعضاء في وسطه . وقد يراد بالأغلال في أعناقهم : أعمالهم السيئة التي هي كالأغلال .

(٣) السلاسل : جمع سلسلة وهي حلق من حديد ونحوه يدخل بعضها في بعض.

آلهتهم التي كانوا يعبدونها غابوا عنهم وتركوهم في هذا البلاء ، وأضافوا قائلين : ﴿ بَلْ لَمْ نكُنْ ندعوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي بل تبين لهم أنهم كانوا يعبدون شيئاً لا يعتد به ولا يرجى منه نفع وأن عبادتهم للأصنام كانت عبادة باطلة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ ﴾ أي كما فعل الله سبحانه بهؤلاء من الإضلال بسبب تنكبهم عن الحق يفعل سبحانه بكل كافر فلا يرحمه ولا ينجيه من عذاب النار ﴿ ذَلِكُم ﴾ أي ذلك العذاب الذي نزل بكم سببه : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بما كنتم تفرحون في الأرض بطغيانكم وخيلائكم وخطاياكم ، وبشرككم بالله ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ والمرح المقصود به البطر ، وقيل التمادي في المعاصي . ونتيجة لطغيانكم وبطركم ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ادخلوا أبواب جهنم مكتوباً لكم الخلود فيها تعذبون بنارها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ ﴾ فبئس مستقر المتكبرين جهنم ، فالكبرياء والترفع عن قبول الحق أوردهم العذاب في الآخرة .

وبعد هذا التهديد والوعيد للكافرين تأتي البشرى لمحمد ﷺ بالنصر على أعدائه :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٧٧) .

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً بقوله : فاصبر على هؤلاء المشركين في ما يخاصمونك فيه من آيات الله وعلى تكذيبهم بنبوتك وما أنزل عليك من الوحي فإن الله منجز لك ما وعدك به من الظفر عليهم والعلو عليهم ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾ فإما أن نريك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب والخزي مثل القتل

والأسر ـ وهذا ما تحقق فعلاً يوم معركة بدر ـ فذاك ما يستحقونه ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ وإما أن نتوفاك قبل إنزال العذاب فيهم ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ فإلى الله يرجعون بعد وفاتك فيذيقهم أشد العذاب في الآخرة .

وقفة تأمل عند قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ التي تكررت هذه الجملة مرتين من باب التأكيد ، نعم لقد وعد الله رسوله محمداً بالنصر ، وتحقق هذا النصر بعد سنوات قلائل ، هذا الوعد الإلٓهي من أعظم الدلائل على كون القرآن من عند الله وعلى صدق نبوة محمد ﷺ ، فلو كان محمد مدعياً النبوة كما يقول المفترون المكذبون لرسالته ، لما وجّه إلى نفسه هذا الخطاب وهو واثق بالنصر متأكد من الفوز ، وبالأخص ان هذه السورة ومنها هذه الآية التي ذكرناها نزلت في مكة حين كان الإسلام ضعيفاً والمسلمون قلة مضطهدة يلاقون ألوان العذاب على أيدي الكفار وحين كان محمد ﷺ في أحرج الظروف حيث كانت دعوته تجابه أكثر الأخطار ضراوة .

من هنا نفهم أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فيه البشرى لمحمد ﷺ بالنصر وقد تحقق النصر بعد سنوات قليلة مما يشهد بصدق نبوته وأنه مؤيد من الله . إن كثيراً من عظماء التاريخ كانوا يمنون أنفسهم بالنصر ويعدون قومهم به وهم في أوج قوتهم ، ولكنهم اندحروا في خاتمة المطاف ، أما محمد ﷺ فقد نقل عن ربه وعده بالنصر في أصعب المواقف وأخطرها ، وقد صدق الله وعده وانتصر محمد ﷺ على خصومه .

وبعد هذا الوعد بالنصر تأتي الآية التالية مبينة أن حال الرسول محمد ﷺ مع قومه كحال الرسل قبله وأن التأييد الرباني لرسله يسير وفق الحكمة الإلٓهية :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٧٨) .

فالله سبحانه يقول بأنه أرسل رسلاً إلى قومهم قبل رسالة محمد ، منهم من أنبأ محمداً بأخبارهم في القرآن وهم خمسة وعشرون نبياً ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ومن هؤلاء الرسل من لم يحك الله لمحمد عنهم شيئاً ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي وما كان لرسول من عند الله أن يأتي بمعجزة دالة على صدق رسالته إلاّ بإذن الله وأمره ، وهذا رد على كفار قريش حيث اقترحوا على الرسول محمد ﷺ أن يأتيهم ببعض المعجزات . فالله يريد أن يبين للناس أن الرسل هم بشر مثلهم اختارهم من بين الخلق ، وحدد وظيفتهم وهي إبلاغ رسالة الله إلى الناس ، وأن الرسل ليسوا بقادرين على أن يتجاوزوا حدود هذه الوظيفة ويأتوا بالمعجزات حسب طلبهم .

ويتابع الله قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ أي فإذا جاء أمر الله لمحاسبة الخلق قضي بينهم بالعدل ، ففي الدنيا ينجي الله رسله والذين آمنوا معهم من الخزي والعذاب في الدنيا ويثيبهم في الأخرة بجنات النعيم ، أما الذين كفروا فيصيبهم الله بعذاب الآخرة حيث الخسارة الكبرى ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي خسر الذين اتبعوا الباطل واجتنبوا الحق ، هذا وقد يصيب الله الكافرين بعذاب الدنيا قبل الأخرة .

ثم تعود بنا الأيات لافتة الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلّهية التي هي على مرأى الأنظار ، وقد غفل الناس عن الاعتبار بها لطول مجاورتها لهم :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ (٧٩ ـ ٨١) .

فالله سبحانه يمتنُّ على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي : الإبل والبقر والغنم ، وما جعل لهم فيها من منافع : فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تُركب وتُؤكل وتُحلب ويُحمل عليها الأثقال في الأسفار الطويلة ، والبقر والغنم تُؤكل ويُشرب لبنها ، والجميع يُجز صوفها وشعرها ووبرها فيتخذ منها الثياب وبعض الأمتعة : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي وتنجزوا بالإبل رغبة في صدوركم وهي حمل أثقالكم من أمتعة وتجارة من بلد إلى بلد ، وقد كانت الإبل قديماً قبل اختراع وسائل المواصلات الحديثة الأداة الوحيدة للأسفار البعيدة عند العرب وغيرهم من الشعوب لما تتحمل من المشقات وخصوصاً في الصحاري ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أي وعلى الإبل في البر ، وعلى السفن في البحر تُحملون في أسفاركم . وقد جمعت الآية بين الإبل والفلك في الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت الإبل سفائن البر ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي ويريكم ربكم حججه وبراهينه الدالة على وجوده ووحدانيته وحكمته ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ أي إن آيات الله على كثرتها لا يمكنكم أن تنكروا واحدة منها فهي من الظهور والوضوح بحيث لا يستطيع أن يجحدها جاحد .

المتمعن بخلق الإبل والبقر والغنم يرى أنها خلقت لمنفعة الإنسان ويرى فيها يد القدرة الإلهية المبدعة الحكيمة ، وينفي قيام هذه المخلوقات صدفة عن طريق المادة وحدها كما يدعي الماديون الملحدون ، فالمادة العمياء لا تخلق حيوانات لمنفعة الإنسان بالذات وفي سبيل توفير القوت

والراحة له ، فوجود القصد والنفع للإنسان من هذه الأنعام له دلالة على وجود خالق حكيم وهو الله سبحانه .

ويتابع القرآن فيدعو المشركين المكذبين لرسالة محمد ﷺ إلى النظر والاعتبار بما حل ببعض الأمم السابقة من هلاك جزاء تكذيبهم لرسل الله :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٨٣) .

فالله سبحانه يقول : ألم يَسِر هؤلاء المشركون في البلاد فينظروا ويعتبروا بما حلّ بالأمم قبلهم من المكذبين لرسل الله كقوم عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقد كان المشركون من قوم محمد ﷺ يتعاطون التجارة فيرحلون إلى الشام صيفاً ، وإلى اليمن شتاء ، وكانوا أثناء رحلاتهم يمرون بالبلاد التي دمرها الله على رؤوس المكذبين لرسل الله ، ويرون آثار الدمار البادي بعد هلاكهم ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُم وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ ﴾ كان هؤلاء أكثر عدداً ، وأشد بطشاً من قومك يا محمد ، وأبقى في الأرض آثاراً ، يدل على ذلك ما بقي من آثارهم من أبنية وقصور وجبال منحوتة ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي فما نفعهم وما دفع عنهم عذاب الله ما كسبوه من مال وقوة وسلطان ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فلما جاءتهم رسل الله بالمعجزات الواضحات ، والحجج الدامغات الدالة على وجود الله ووحدانيته ووجوب طاعته ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ لقد فرحوا بما عندهم من العلم الدنيوي وظلوا على ما هم فيه من ضلال وموبقات ونكران للبعث والجزاء يوم القيامة حتى استحقوا العذاب ﴿ وَحَاقَ

بِهم مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ونزل بهم من عذاب الله جزاء كفرهم واستهزائهم برسل الله وشريعته .

وما أكثر الذين أنكروا الأديان وألحدوا بوجود الخالق في عصرنا الحاضر فرحين مبهورين بما وصلت إليه المدنية من علم وحضارة ، ولكن أي علم هو ، إنه علم عن ظاهر من الحياة الدنيا لم يكشف لهم شيئاً ما بعد الموت ولم يوفر لهم سكينة النفس ولم يهذب النفس الإنسانية ويحد من أطماعها وأنانيتها وإجرامها بما جاء الدين لأجله .

ثم يأتي ختام السورة وفيه بيان لمصير المستهزئين برسل الله وشرع الله حيث سيصيبهم الله بعذاب الدنيا قبل الآخرة :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافِرُونَ ﴾ (٨٤ ـ ٨٥) .

فهؤلاء المستهزئون برسل الله ودين الله عندما رأوا بأس الله أي العذاب الذي أصابهم ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أي أقروا بربوبية الله وحده عند رؤية العذاب وجحدوا ما أشركوا مع الله من أوثان وأصنام وآلهة ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ فلم ينفعهم هذا الإيمان عندما حلّ بهم عذاب الله لأنه إيمان ينبيء عن يأس واضطرار وقهر لا إيمان استجابة طوعية ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ ﴾ أي هذا ما جرى به نظام الله في خلقه إنه من تاب بعد رؤية العذاب لم تنفعه توبته ، كما حصل مع فرعون عندما أدركه الغرق قال آمنت ، فلم ينفعه هذا الإيمان ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُون ﴾ وهلك الجاحدون بتوحيد الله المتخذون من غيره آلهة .

سُورَة فُصِّلتْ

قضية العقيدة الإسلامية بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة من الإيمان بالله وحده الخالق لكل الموجودات ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، والإيمان بالوحي الإلّهي الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ والمتمثل بهذا القرآن .

وتبين السورة طريقة الدعوة إلى الله ، والصفات المتوجبة في الداعي إلى الله ، مع بيان لمنزلة الاستقامة وما ينشأ عنها من رضاء الله .

كما تتحدث هذه السورة عن بعض الأقوام السابقين وما حلَّ بهم من هلاك وعذاب بسبب تكذيبهم رسل الله وإصرارهم على الكفر .

هذه القضايا يعرضها القرآن بأسلوب مقنع ينفذ إلى أعماق النفس ، ففي قضية الإيمان بالله يعرض القرآن بعض المظاهر الكونية وما فيها من براهين ودلائل على وجود خالق لها ، وفي قضية الحياة الآخرة وإحياء الموتى يقرب القرآن ذلك إلى الأفهام بالأرض الموات التي تحيا بالمطر وتنمو فيها أنواع النبات ، وفي قضية الوحي الإلّهي تصور السورة بعض محاولات المشركين للتشويش عليه للحؤول دون وصوله إلى الأسماع .
وتُختتم السورة بأن الله سَيُري الأجيال القادمة الدلائل على عظمة القدرة الإلّهية متمثلة في آفاق السماء والأرض وفي أسرار النفس الإنسانية وهذا ما تحقق فعلاً عن طريق الكشوفات العلمية الحديثة .

سميت هذه السورة (فُصِّلت) لأن الله فصل فيها الآيات ووضح فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته ، وأقام البراهين على عظمته ، كما سميت بسورة (السجدة) لما احتوته من سجدة التلاوة ، كما تسمى سورة حٰم السجدة ، وسورة المصابيح .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا
عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ
لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا
وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ
مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ
وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨ * قُلۡ أَئِنَّكُمۡ
لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗا

شرح المفردات

فُصِّلت : بينت ووضحت .

بشيراً ونذيراً : مبشراً المؤمنين بنعيم الجنة ومخوفاً الكافرين من عذاب النار .

أكِنَّة : جمع كنان وهو الغطاء .

وقر : صمم .

حجاب : ستر يمنعنا من تقبل دعوتك .

غير ممنون : دائم غير منقطع .

أنداداً : جمع نِدّ وهو المثيل ، والمراد تجعلون لله شركاء في العبادة .

ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

شرح المفردات

رواسي : جبال ثوابت .

أقواتها : أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم .

سواء : كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة .

استوى إلى السماء : توجهت إرادته إلى خلق السماء .

ائتيا : افعلا ما أمرتكما به وجيئا به .

فقضاهن : أحكم وأبدع خلقهن .

وأوحى في كل سماء أمرها : كوّن وأوجد في كل سماء ما هي مهيأة له من خلق .

أنذرتكم صاعقة : خوفتكم عذاباً شديداً ينزل بكم .

صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا
ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴿١٦﴾ وأما ثمود فهدينهم
فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صعقة العذاب الهون بما
كانوا يكسبون ﴿١٧﴾ ونجينا الذين ءامنوا وكانوا يتقون ﴿١٨﴾ ويوم
يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴿١٩﴾ حتى إذا ما جاءوها شهد
عليهم سمعهم وأبصرهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿٢٠﴾ وقالوا
لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء
وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴿٢١﴾

شرح المفردات

ريحاً صرصراً : ريحاً مزمجرة شديدة البرودة .

نَحِساتٍ : مشئومات .

لنذيقهم عذاب الخزي : لنعذبهم عذاب الذل والإهانة .

فهديناهم : بيّنا لهم طريقي الضلالة والهدى .

فاستحبوا العمى على الهدى : فاختاروا الكفر على الإيمان .

فأخذتهم : فاهلكتهم .

العذاب الهُونِ : العذاب المهين المذل .

يُحْشَرُ : يجمع .

يُوزعون : يجعل عليهم وازعاً ينظمهم ويمنعهم من الانتشار قبل اكتمال تجمعهم .

سُورَةُ فُصِّلَتْ

ايضـــاح و دروس

استهلت هذه السورة بالحديث عن القرآن وما فيه من خصائص مميزة :

﴿ حمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾[1] (١ - ٤) .

(١) يتميز القرآن بأسلوبه الخاص به ، ولو كان القرآن من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب ، هذا الأسلوب الخاص بالقرآن هو الذي أفحم العرب وكان سبباً في إسلامهم لما رأوا فيه من بلاغة وفصاحة وتأثير في النفس . ولقد جاء في كتب السيرة في خصوص هذه السورة أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً في قومه قال يوماً وهو جالس في نادي قريش : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه اموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا ، فقام عتبة إلى رسول الله ﷺ حتى جلس عنده فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكانة في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم (أي عقولهم) وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . . . إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه (أي من الجن) لا تستطيع رده طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال : أفرغت يا أبا الوليد ، قال : نعم ، قال اسمع ، ثم قرأ عليه رسول الله هذه السورة حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ فسجد ، ثم قال رسول الله : قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض عندما رأوه : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قالوا ما وراءك ؟ قال ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعوا لي واجعلوها لي خلواً (أي تركاً) وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

فالله تعالى يقول بأن هذا القرآن منزل من عنده على نبيه محمد ﷺ فهو سبحانه ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ وهما اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمٰن هو الذي وسعت رحمته كل شيء ، والرحيم هو الذي كثرت رحمته ، والرحمن اسم مختص لله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره ، والرحيم يوصف به غير الله تعالى فيقال رجل رحيم ، والرحمة في الإنسان تعني رقة القلب وعطفه ، أما رحمة الله تعالى فتعني إفضاله وإحسانه ورزقه للعباد .

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ فهذا القرآن كتاب قد فُرِّقت آياته وجُعلت تفاصيل في معانٍ مختلفة : فبعضها في وصف ذات الله تعالى وكمال علمه وقدرته وحكمته ، وبعضها في عجائب خلقه للسماوات والأرض ، وبعضها في خلقه للنبات والحيوان ، وبعضها تتكلم عن عبادة الخالق ، وبعضها في الثواب والعقاب ، وبعضها في الشرائع ، وبعضها في المواعظ والنصائح ، وبعضها في قصص الأولين التي فيها العبرة والعظة للأمم ، وبالجملة فمن أنصف من الناس أدرك أنه ليس هناك كتاب اجتمعت فيه العلوم المختلفة مثل ما اجتمعت في القرآن ، فهو ﴿ قُرْآناً عَرَبِيًّا ﴾ أي أنزله الله بلسان العرب حتى يسهل فهمه عليهم ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إلى أن القرآن ينتفع به أهل العلم أكثر من غيرهم ، لما يرون فيه من الحقائق الساطعةالتي تُثبت أنه وحي إلٓهي فيه كل مقومات السعادة للأمم .

﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ وهذا القرآن يبشِّر المطيعين ربهم بما يسرهم من الثواب الجزيل والخير العميم ، ويخوف الكافرين والعاصين ربهم بالعقاب الأليم في الآخرة ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ فأعرض أكثر الذين جاءهم القرآن هادياً عن تدبّر آياته التي ترشد إلى الحق وتهدي إلى الخير ، فهم بسبب هذا الإعراض لا يسمعون آيات القرآن سماع تدبر واستفادة .

ثم يبين القرآن موقف الكافرين من دعوتهم إلى الحق :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (٥) .

أكنة : جمع كنان ، وهو الغشاء والغطاء ، فإنهم قالوا : قلوبنا مغلفة بأغشية متكاثفة فلا ينفذ إليها يا محمد ما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده واتباع هديه ﴿ وفي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ وفي آذاننا صمم يمنعنا عن استماع قولك فأنت في طريق ونحن في طريق ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أي اعمل على دينك يا محمد واستمر عليه وهو التوحيد ، أما نحن فإننا مستمرون على ديننا وهو الإشراك بالله .

هذا القول يقوله كثير من الناس عندما يُواجهون بالحقيقة الساطعة فالتقليد للآباء والمحافظة على التراث الاجتماعي الموروث يحجب النظر عن رؤية الحقائق وسماع كلمة الهدى لأنها تحمل طابع التغيير ، وهم لا يريدون تغيير ما هم عليه من معتقدات وعادات .

وبعد رفض المشركين لدعوة النبي ﷺ تأتي الآيات مهددة لهم بالعذاب بسبب إشراكهم بالله ومنعهم الزكاة وجحودهم للحياة الآخرة :

﴿ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (٦ - ٨) .

فالله يأمر رسوله أن يقول لمشركي مكة : ما أنا إلاّ بشر مثلكم بلَّغني الله بواسطة وحيه : أن لا معبود تصح عبادته إلاّ هو وحده سبحانه ، فأخلصوا له العبادة ، وسيروا على الطريق المستقيم الذي رسمه لكم ، وسلوه العفو عن

ذنوبكم التي سلفت منكم ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ويل : كلمة عذاب ودعاء بالشر تقال لمن يستحق الهلاك لسوء فعله ، أي هلاك للمشركين بسبب إشراكهم آلهة مع الله ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وصف الله المشركين بأنهم لا يؤتون زكاة أموالهم للمحتاجين ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهم منكرون للقيامة حيث يبعث الله الخلق أحياء من قبورهم للحساب والجزاء .

يستوقفنا هنا وصف المشركين بأنهم لا يؤتون الزكاة كي يتنبه المؤمنون ويقوموا بأدائها حتى لا يكونوا في منزلتهم .

ولكن لماذا خص الله تعالى وصف المشركين بمنع الزكاة مقروناً بالكفر في الآخرة ؟ أجيب على ذلك بأن أحب شيء إلى الإنسان مَالُهُ ، فإذا بذله في سبيل الله فذاك أقوى دليل على إيمانه بالله واليوم الآخر ، بينما منع الزكاة يشعر بعدم الإيمان وبالتالي يدل على كفر الإنسان باليوم الآخر حيث الجزاء على الأعمال .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي إن الذين صَدَّقوا بوجود الله ووحدانيته وعملوا بما أمرهم الله به من صالح الأعمال ، ونهوا أنفسهم عما حرمه عليهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لهم عند ربهم جزاء دائم غير منقطع ولا ممنون به عليهم .

ثم يبين القرآن عظمة الله الذي خلق هذا الكون أرضه وسماءه ، وهذا مما يستدعي الانقياد لله وحده بالطاعة والعبادة :

﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٩ ـ ١٢) .

فالله سبحانه يوجه الخطاب إلى الكفار بشكل استفهام ينطوي على التوبيخ والإنكار لكفرهم[١] ، فيأمر رسوله محمداً أن يقول لهم : كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ أي وتجعلون أيها الكفار لله شركاء تعبدونها معه وتساوونها به ، والأنداد : جمع نِدّ وهو المِثل والنظير ، والعرب قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله إلاّ أنهم لا يرون أنها تبلغ مبلغ الله في عظمته وقدرته ، ولكن عبادتهم لها تجعلها مساوية لله . ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ العالمين : جمع عالم ، ومعنى العالمين كل ما خلق الله ، وقيل المراد بهم الإنس والجن ، والمعنى : ذلك الإله العظيم الشأن الذي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ[٢] هو رب العالمين فهو سيدهم ومربيهم ومالك التصرف فيهم وحده .

ويتابع القرآن قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ أي وجعل الله في الأرض جبالاً ثوابت كائنة من فوقها ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي وكَثَّر الخير في الأرض بأنواع النبات وأنواع الحيوانات وكثرة المياه وغير ذلك من الفوائد التي لا تخفى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ وجعل في الأرض أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من المنافع والمطر ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في مدة

---

(١) مظاهر كفرهم تتمثل بادعاءاتهم بأن الله لا يقدر على إحياء الموتى وفي إضافة الأولاد والشركاء له وفي إنكار نبوة محمد .

(٢) اليوم كما هو معروف عبارة عن دوران الأرض حول نفسها ويتم في نهار وليلة . وقبل خلق الأرض لم يكن هناك شمس ولا يوم ، ولهذا كان المراد من اليوم هنا مدة من الزمن ، أو طوراً من الأطوار الذي خلق الله فيه الأرض لا يعلم تحديده إلاّ الله ، وقد جاء في القرآن بأن اليوم يفهم منه أزمنة طويلة مثل قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كانَ مِقدارُه خمسين ألف سنة ﴾ .

أربعة أيام من حين ابتداء الخلق ، أي خلق الله الأرض في يومين ، وخلق الجبال وأقوات الأرض في يومين فيصبح المجموع أربعة أيام ﴿ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ سواء : أي مستوية كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة ، للسائلين : أي لطالبي الأقوات المحتاجين إليها ، أو بمعنى : للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها من مخلوقات .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ ثم عمد سبحانه إلى خلق السماء وتسويتها وكانت طبيعتها كطبيعة الدخان ، أو شبه ذلك ، فخلق سبحانه السماوات خلقاً إبداعياً حسب ما اقتضته حكمته .

إن تصريح القرآن بأن الكون في بدء نشوئه كان دخاناً لمما يثير الدهشة ويوجب وقفة تأمل، ولنلق نظرة خاطفة إلى بعض النظريات العلمية[١] التي

---

(١) يقول الدكتور جامو Dr.George Gamow أستاذ الطبيعة النظرية بجامعة واشنطن : إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً منتظماً . . . إنه غاز يبلغ من الكثافة ودرجة الحرارة حداً لا يمكن تصوره ، وفي هذا الغاز حدثت عمليات التحول النووي في مختلف العناصر ، وتحت تأثير الضغط الهائل لهذا الغاز الساخن المضغوط بدأ الكون ينبسط ويتحدد وأخذت كثافة المادة ودرجة حرارتها تهبطان في بطء ، وفي مرحلة معينة من مراحل التمدد تكثف الغاز المنتشر إلى سحب مفردة غير منتظمة في شكلها ، ولا متساوية في أحجامها مكونة نجوماً مفردة . . . » .

ويقول العالم الفلكي سيرجيمس جينز في كتابه النجوم في مسالكها: الراجح أن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بانتظام وأن السدائم (مجموعة هائلة من النجوم) خلقت من تكاثف هذا الغاز .

ويقول الدكتور محمد جمال الدين الفندي والدكتور محمد يوسف حسن في كتابهما قصة الكون: إن كوننا بدأ في صورة سحابة هائلة أو سديم (سحابة) من دخان هو أشبه ما يكون بالقرص الضخم أو الدوامة العظمى التي كانت تدور في الفضاء ، وقد لعب غاز الإيدروجين وهو أبسط أنواع المادة تقريباً وأهمها في تكوين الماء دوراً هاماً في تكوين ذلك السديم ، وما تمخض عنه بعد ذلك من تكوين المجرة إذ انقشع الغاز عن بعض الأجزاء وتراكم في بؤرات خاصة فولدت النجوم والشموس .

قيلت في بدء نشوء الأجرام السماوية نسردها من باب المعرفة لا من باب المقارنة ، فالقرآن هو كتاب هداية وليس كتاباً لسرد النظريات العلمية .

وإن وصف السماء في بدء تكوينها بالدخان يشير إلى أن المادة التي تكونت منها السماء كان لها من الصفات الهامة ما يشبه صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران ، أي أنها كانت مادة مظلمة بذاتها مفككة الأجزاء ، خفيفة ومنتشرة في الفضاء كما ينتشر السحاب ، وكان هذا الدخان ساخناً إلى حد ما إذ الدخان لا يصدر إلاّ من أصل ناري ، وهذا ما يفهم من لفظ دخان ، وإن كان المفسرون القدامى فسروا الدخان ببخار الماء .

وبعد أن دعا داعي الحكمة إلى خلق السماء والأرض جاء النداء الرباني لهما : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً ﴾ أي ائتيا وجيئا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف طوعاً أو كرهاً ، أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك وكواكبك ونجومك ، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما شئت أن يكون فيك من بحار وأنهار وأشجار وثمار ونبات وحيوان وسهول وجبال ﴿ قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أي جئنا منقادين لأمرك مطيعين لما أحدثت فينا من الخلق وما كان لنا أن نخالف أمرك .

فإذا كان هذا الكون بسمائه وأرضه قد انقاد إلى أمر الله طوعاً فما أحرى بالإنسان أن ينقاد إلى أمر الله طوعاً ، وأن يستجيب إلى طاعته والسير وفق شريعته ، ولا يتمرد على خالقه ، فإنه طوعاً أو كرهاً في يد القدرة الإلٓهية التي تتصرف في مقدراته ، والإنسان ضعيف معرض للأخطار والأمراض المستعصية ، والكوارث الطبيعية ، والنهاية التي تنتظره هي الموت ، فلا يجدر به أن يجعل للغرور سبيلاً إلى نفسه ، وأن يتكبر على طاعة ربه ، فالانقياد الطوعي لخالقه ، واتباع منهجه وشريعته يسبغ عليه رضى

وطمأنينة ، ويضفي عليه نوراً يهديه في ظلمات هذه الحياة ، ويوصله إلى الرحمات الإلّهية .

ويتابع القرآن مبيناً مدة خلق السماوات : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَموات في يَوْمَيْنِ ﴾ أي صنعهن وأبدع خلقهن سبع سماوات في يومين فيكون مجموع مدة خلق السماوات والأرض ستة أيام ، وهي يومان لخلق الأرض ويومان لخلق الجبال وأقوات الأرض ويومان لخلق السماوات . ﴿ وَأَوْحَى في كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي رتَّب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من العناصر التي لا يعلمها إلاّ هو ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أي وزيّن الله السماء الدنيا بالنجوم والكواكب التي تبدو في الليل كالمصابيح ، ﴿ وَحِفْظاً ﴾ أي وحفظها الله من الآفات ومن الارتطام ببعضها البعض ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أي إن خلق السماء والأرض وحفظها هو تقدير الله القوي الغالب ، العليم بسرائر عباده وعلانيتهم .

وبعد أن بينت الآيات السابقة عظمة القدرة الإلّهية تأتي الآيات التالية مهددة المشركين بهلاك شبيه بما حلَّ بالأمم السابقة جزاء رفضها ما جاء به رسل الله من الهدى :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١٣ ، ١٤) .

فالله يقول : إن ولّى ورفض هؤلاء المشركون ما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان ، ولم يصدِّقوا بما جئتهم به من الهدى بعد عرض كل ما تقدم من الحجج الباهرة الدالة على قدرة الله ، فقل لهم : أُخوّفكم أيها الناس وأُحذركم من ﴿ صَاعِقَةً ﴾ أي عذاب يصيبكم مثل العذاب الذي حلّ بقوم

عاد وثمود ، والصاعقة هي الصوت الشديد من الجو يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت .

﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي جاءتهم رسل الله هود وصالح من جميع الجهات واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة ، وقد يُراد بتعبير ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم ﴾ الزمن الماضي وبما خلفهم المستقبل أي جاءهم رسل الله بالإنذار عما جرى لأمثالهم الكفرة في الماضي من الهلاك ، وبالتحذير عما سيحيق بهم في الآخرة من العذاب . وقد قالت لهم الرسل : ﴿ أَلَّا تَعْبُدوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي دعتهم رسل الله بأن لا يعبدوا إلّا الله وحده لا شريك له . ولكن ماذا كان جواب هؤلاء الأقوام : ﴿ قَالوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ﴾ أي أجابوا رسل الله الذين دعوهم للإقرار بوحدانية الله : لو شاء ربنا أن نوحده ، ولا نعبد أحداً غيره لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلاً يأمروننا بما تدعوننا إليه ، ولم يرسل لنا بشراً مثلكم ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فإننا بالذي أرسلكم به ربكم من الدعوة إلى دينكم لجاحدون .

هذا ما كان يتعلل به الأقوام السابقون من رفض ما يدعوهم إليه رسل الله من الهدى ، وهذا هو نفس السبب الذي كان يتعلل به مشركو قريش ، والقرآن حين يذكر هذه الأمور عن الأمم السابقة إنما يفعل ذلك تحذيراً للمشركين من قريش من عذاب الله وتثبيتاً لقلب محمد مما يقاسيه من قومه من إعراض ، فقومه شبيهون بتلك الأمم التي حل بها عذاب الله .

ثم يذكر القرآن نوع العذاب الذي حل بقوم عاد :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً في أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ ﴾ (١٥ ـ ١٦) .

فقوم (عاد) من الشعوب العربية البائدة ، وقد أرسل الله إليهم رسوله هوداً فلم يستجيبوا لنداء الله بل أصروا على كفرهم ، فالله يصفهم بأنهم استكبروا على ربهم وتجبروا في الأرض بغير حق ، وقالوا مغترين بأنفسهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ولكن ألم يعلموا علماً جلياً مبنياً على المشاهدة والعيان أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي وكانوا بمعجزات الله أو بالأدلة والحجج الدالّة على وحدانية الله يجحدون ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ فالله سبحانه أرسل عليهم ريحاً صرصراً وهي الريح الشديدة ، وقيل : الريح الشديدة البرودة التي لها صوت من شدتها ﴿ في أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ في أيام ذات شر وشؤم ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي ليذيقهم الله عذاب الإهانة والافتضاح في الحياة الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ ﴾ ولعذاب الآخرة أشد إهانة لهم وهم لا ينصرهم ناصر يومئذٍ .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما حل بثمود جزاء كفرهم ، وثمود هم أيضاً من الشعوب العربية البائدة :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَنَجَّيْنَا الَّذِين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١٧ ، ١٨) .

فالله يقول : وأما ثمود فقد بيّنا لهم طريق الخير وطريق الشر وأمرناهم أن يتبعوا الهدى ولكنهم فضّلوا الضلالة على الهدى فأصابتهم صاعقة أهلكتهم بعذاب مذل مهين لهم ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِين آمَنُوا وَكَانوا يَتَّقُونَ ﴾ أي

ونجى الله من العذاب الذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته وكانوا يخافونه ويجتنبون ما نهى عنه من الكفر والإثم .

وهكذا يعلن القرآن أن المؤمنين المتقين ربهم هم في حفظ من العناية الإلّهية ، وفي هذا ترغيب للناس للانخراط في سلك المؤمنين .

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير الكافرين في الآخرة ، وما يقاسونه آنذاك من خزي وعذاب :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٩ ـ ٢١) .

أي ويوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء ، يُجمع أعداء الله إلى النار ليعذبوا بها ﴿ فَهُمْ يُوزَعُون﴾ أي يقوم بين صفوف الكفار الوازعون من الملائكة فيمنعون من تقدم من جموع الكفار إلى الانطلاق وإكمال السير حتى يلحق بهم من تأخر ، وهذا يدل على كثرة أهل النار الهائلة ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ حتى إذا ما جاءوا إلى النار وسُئلوا عما ارتكبوا من آثام وأرادوا الإنكار ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُم وَجُلُودُهم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي شهدت عليهم بما كانوا يعملونه في الدنيا من آثام . ثم حكى الله عنهم أنهم يسألون تلك الحواس سؤال توبيخ : ﴿ لِمَ شَهِدتُّم عَلَيْنَا ﴾ فتكون الإجابة ﴿ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أن نطقنا ليس بعجيب ولا مستبعد على قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل شيء ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فالذي أوجدكم من العدم قادر على إنطاق حواسكم في الحياة الآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وإلى الله مصيركم بعد الممات .

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ
أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ
أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ
أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن
يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم
مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا

شرح المفردات

تستترون : تستخفون .

أرداكم : أهلككم .

مثوى : مقام ومنزل .

يستعتبوا : وإن يطلبوا الرجوع إلى الدنيا لإرضاء الله بالإيمان والعمل الصالح .

قيضنا : سلّطنا ووكلنا .

قرناء : جمع قرين وهو الصاحب وهؤلاء الأصحاب ، من الشياطين وغواة الإنس .

فزَيَّنوا : فحسنوا وجملوا .

حق عليهم القول : ثبت وتقرر عليهم العذاب .

خلت : مضت .

والْغوا فيه : عارضوه وشوشوا عليه بالكلام الباطل .

يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ
فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن
دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي
الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا
يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

شرح المفردات

استقاموا : عملوا بطاعة الله وأخلصوا له .

نحن أولياؤكم : نحن نصراؤكم وأحباؤكم .

ما تدَّعون : ما تتمنون وتطلبون .

نُزُلاً : النُّزُل ما يهيأ للضيف ليأكله حين نزوله وهو المنزل أيضاً .

لا تستوي : لا تتساوى وتتماثل .

ادفع : رُدَّ .

ولي حميم : صديق قريب يهتم لأمرك .

ما يلقَّاها : لا يوفق إلى هذه الخصلة الشريفة ولا ينعم عليه بها .

ينزغنَّك : النزغ هو ما يوسوس به الشيطان من فعل السوء والشر .

فاستعذ بالله : لُذْ إلى الله والجأ إليه .

تابع سورة فصّلت

ويتابع القرآن الكلام عن أعداء الله وما يقاسونه في الآخرة من عذاب وخزي :

﴿ وَمَا كُنْتُم تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُم أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِينَ . فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (٢٢ ـ ٢٤) .

فالله سبحانه يخاطب الكافرين توبيخاً وتقريعاً : وما كنتم تستخفون من حواسكم وجوارحكم عند فعل المعاصي كما كنتم تستخفون من الناس مخافة الفضيحة لأنه لم يكن يخطر ببالكم أنها ستشهد عليكم يوم القيامة وكنتم تظنون أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالكم السيئة بسبب إتيانها في الخفاء ولذلك اجترأتم على المعاصي والآثام ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ وذلك الظن الفاسد الذي ظننتموه بربكم ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ أهلككم وأدخلكم النار ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ فأصبحتم يوم القيامة من الخاسرين الذين خسروا نعيم الآخرة واستحقوا عذاب النار ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ فإن أمسك هؤلاء عن الاستغاثة وصبروا لفرج ينتظرونه لم يجدوا فرجاً بل تكون النار مقاماً لهم ومنزلاً ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا ﴾ وإن يطلبوا العودة إلى الدنيا للرجوع عن أعمالهم السيئة واسترضاء الله ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِين ﴾ فما هم بالمسموح لهم بالرجوع عن الإساءة واسترضاء الله .

ويبين القرآن أن إصرار الكافرين على كفرهم جرّ عليهم أوخم العواقب :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَا بَيْنَ أَيدِيهِم وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـوْلُ في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْـسِ إِنَّهُم كَـانوا خَاسِرِينَ ﴾ (٢٥) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ أي هيأنا وسلطنا على الكفرة في الدنيا أصحاباً يلازمونهم من شياطين الجن والإنس ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهم ﴾ فحسنوا وجمَّلوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وما هم عليه من الأعمال القبيحة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمور الآخرة حيث دعوهم إلى التكذيب بالبعث وأنه لا ثواب ولا عقاب بعد هذه الحياة ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي ثبتت وتقرر عليهم كلمة العذاب ﴿ في أُمَمٍ قَدْ خَلَت مِن قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْـسِ ﴾ أي مع أمم قد مضت قبلهم بعضهم من الجن وبعضهم من الإنـس ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ خاسرين بإبدالهم رضاء الله ونعيمه بسخطه وعذابه في الدنيا والآخرة .

ثم ينتقل القرآن إلى وصف ما كان يفعله الكفار من العرب للتشويش على القرآن حتى لا يصل كلامه إلى الأسماع ، ولا يبلغ هداه القلوب :

﴿ وَقَالَ الَّذِين كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ والْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢٦) .

فكفار قريش عندما سحرهم القرآن بروعة بيانه وبديع إعجازه خافوا أن يفتن قومهم كما حصل في الحادثة المذكورة في مطلع هذه السورة مع عتبة بن ربيعة ولذلك أوصى بعضهم بعضاً عندما يتلو محمد أو أصحابه القرآن بأن لا يستمعوا إليه وأن يأتوا باللغو عند تلاوته ، واللغو : هو الكلام القبيح والكلام الهزل ، وما لا جدوى فيه من الأعمال والأقوال ﴿ لَعَلَّكم تَغْلِبُون ﴾ أي لعلكم تغلبون محمداً عند قراءته ، وقراءة أصحابه .

لقد أمر كفار قريش بعضهم بعضاً برفع الأصوات عند قراءة القرآن برواية الخرافات والكلمات الباطلة مع الصفير حتى يشوشوا على القارىء قراءته وتصبح قراءته غير مفهومة للناس فبهذه الوسيلة يغلبون محمداً بزعمهم ، وهذا اعتراف ضمني منهم بتأثير القرآن على السامعين ، وإقرار منهم بالجهل لأنهم اعترفوا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من الكلام.

فكفار قريش علموا أن القرآن في أعلى مراتب البلاغة ، وأن كل من سمعه انبهر بجزالة ألفاظه وروعة معانيه ولهذا تآمروا على منع وصول آيات القرآن إلى الأسماع ، لأن السمع كان الوسيلة الوحيدة في نشر المعرفة والهداية في ذلك الوقت ، فلم تستحدث آنذاك المطابع والورق وكانت الكتابة نادرة الاستعمال تدوّن على الجلود والخشب والحجر الرقيق والعظام .

ثم يأتي بعد ذلك تهديد الله لهؤلاء الكفار بالعذاب الأليم يوم القيامة :

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِين كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذي كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٧ ـ ٢٨) .

فالله ينذر الذين كفروا بأن يذيقهم عذاباً شديداً ، والذوق إنما يستعمل في كمية قليلة لأجل التجربة والفحص ، فإذا كان الذوق في القليل عذاباً شديداً ، فكيف يكون الحال في الكثير منه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذي كَانوا يَعْمَلُونَ ﴾ فالجزاء : هو المكافأة على الشيء ، ويكون في مقابل الخير ثواباً ، ويكون في مقابل الشر عقاباً ، والمراد هنا أن الله سيعاقبهم بشر أعملهم وسيّىء أفعالهم ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ وهذا العذاب الشديد هو النار الذي سيجزي الله بها هؤلاء الكفار الذين هم أعداء الله ﴿ لَهُمْ فِيهَا

دَارُ الْخُلْدِ ﴾ لهم في النار مسكن دائم إلى غير نهاية ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بآيَاتِنا يَجْحَدُونَ ﴾ وهذا العذاب الخالد هو جزاء لهم بسبب إنكارهم آيات القرآن التي هي كلام الله ، مع علمهم أنه لا يمكن أن تكون هذه الآيات من كلام بشر ، فالجحود معناه : إنكار الشيء مع علم المنكر أنه حق ، ونفي لما اقتنعت به النفس إمعاناً في العناد والكفر ، ولهذا جاء في القرآن في موضع آخر : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ النحل : ١٤ .

ثم يصور القرآن نفسية الكفار يوم القيامة وما تنطوي عليه من بغض وكراهية لمن كان سبباً في إضلالهم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾ (٢٩) .

فالذين كفروا بالله ورسوله محمد ﷺ يقولون يوم القيامة بعد أن أُدخلوا جهنم : يا ربنا أرنا اللذين أضلانا من خلقك من عالمي الجن والإنس ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي لنجعلهما تحت أقدامنا وأسفل منا بالعذاب ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِين ﴾ أي ذلاً ومهانة ومكانة ، أو ليكونا أشد عذاباً منا ، قالوا ذلك حباً في التشفي والانتقام منهم لأنهم كانوا سبباً في إضلالهم .

وبعد أن بين القرآن مصير الكافرين في الآخرة عقب على ذلك بذكر مصير المؤمنين الذين استقاموا على ما أمرهم الله به من الطاعات :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُم فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٣٠ - ٣٢) .

فالذين قالوا ﴿ رَبُّنَا اللهُ ﴾ إيماناً بربوبيته وإقراراً واعترافاً بوحدانيته ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ ثم ثبتوا على ذلك الإقرار واستقاموا عليه فلم تَزِلَّ أقدامهم ، ولم يرجعوا إلى الشرك بالله ، واستمروا على طاعة الله فامتثلوا لأوامره واجتنبوا معاصيه ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملاَئِكَةُ ﴾ أي تهبط عليهم الملائكة عند الموت وفي القبر وعند البعث ، وقيل تتنزل الملائكة على المؤمنين في حياتهم الدنيا فيما يعنُّ ويطرأ عليهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام .

وبعد أن تتنزل الملائكة على المؤمنين تطمئنهم : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ والخوف هو غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه في المستقبل ، أي لا تخافوا على ما أنتم قادمون عليه من أمور الآخرة ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ ، أي لا تحزنوا ولا تأسفوا على ما خلفتموه وراءكم من أهل وولد ومتاع فإن الله خليفتكم عليهم . وتضيف الملائكة قائلة : ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُون ﴾ أي اهنأوا وافرحوا بحصولكم على الجنة التي وعدكم الله بها بسبب إيمانكم به واستقامتكم ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفي الآخِرَةِ ﴾ أي نحن أعوانكم ونصراؤكم في الحياة الدنيا نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ، ونمدكم بالشفاعة ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ أي لكم في الجنة جميع ماتختارون مما تشتهيه نفوسكم وتقرّ به أعينكم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ولكم في الجنة ما تتمنون وتطلبون ﴿ نُزُلاً مِنْ غفُورٍ رَحيمٍ ﴾ والنزل ما يقدم إلى النزيل وهو الضيف ، ويكون المعنى إن الأشياء التي تقدم لكم في الآخرة مما تشتهيه أنفسكم هي ضيافة وعطاء وإنعام من رب غفور لذنوبكم رحيم بكم .

هذا كله جزاء الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ، إنهما كلمتان تجمعان معاني الإسلام اعتقاداً وعملاً ، لأن الإسلام هو توحيد الله وطاعته ، فالتوحيد حاصل بالجملة الأولى : ﴿ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ والطاعة بجميع أنواعها حاصلة بالجملة الثانية : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ لأن الاستقامة امتثال كل مأمور به من الله واجتناب كل منهي عنه .

وفي هذا المعنى يقول الرسول محمد ﷺ عندما طلب منه أحد صحابته أن يقول له في الإسلام قولاً لا يسأل عنه أحداً بعده ، فأجابه بعبارة هي غاية في الروعة والإيجاز : « قل آمنت بالله ثم استقم » رواه مسلم .

وبعد أن بيّن القرآن فضل الإيمان والاستقامة وجزاءهما عند الله بيّن بعد ذلك ثواب الدعوة إلى الإيمان بالله وطاعته :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣) .

فالله يقول : لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، أو بتعبير آخر : إن أرفع مراتب القول هو الدعوة إلى الله ، والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان بوحدانيته وخشيته وعبادته وطاعته ، ويضيف القرآن إلى ذلك قوله : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ لأن الدعوة إلى الله لا ثمرة لها إذا لم تقترن بالعمل الصالح ، وكون الداعي إلى الله هو القدوة في أقواله وأعماله الصالحة ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي قال معتزاً إضافةً إلى ما سبق : إنني ممن خضع لله بالطاعة، وذل له بالعبودية ، وخضع له بالإيمان بوحدانيته .

والدعوة إلى الله ثوابها جزيل ، وأجرها عظيم ، يتبين لنا ذلك عندما أرسل النبي ﷺ علياً بن أبي طالب رضي الله عنه بالراية لمقاتلة اليهود في

خيبر بعد أن اعتدوا على المسلمين ، قال علي بن أبي طالب : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا « أي يصبحوا مسلمين » فقال له النبي ﷺ : على رِسلك « أي على مهلك » حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النَّعَم »[1] .

هذا وإن القرآن رسم للدعاة إلى الله طريقاً يسلكونه فقال في موضع آخر من هذه السورة : ﴿ ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالموعِظَةِ الحَسَنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَن ﴾ .

ثم يبين القرآن بأن الدعوة إلى الدين الحق لا تتساوى مع الأفعال السيئة :

﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣٤ ـ ٣٥) .

فالله يقول : إن الحسنة التي يرضى الله بها ويثيب عليها لا تتماثل ولا تتساوى مع السيئة التي يكرهها ويعاقب عليها ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات وذلك بمقابلة ذنبه بالعفو ، وغضبه بالصبر ، واعتدائه بالحلم ، وإساءته بالإحسان ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي إنك إذا قابلت الاساءة بالإحسان انقلبت العداوة إلى محبة ، وأصبح العدو كالصديق المحب ، والقريب المشفق .

(١) حمر النعم : هي الإبل الحمر ، وكانت عند العرب من أحب الأموال لديهم .

فمقابلة السيئة بالحسنة تقضي على العداوة بين الناس ، وتحول عداءهم إلى مودة ، بينما مقابلة الشر بالشر ، والسيئة بالسيئة فيها تأجيج للعداوة ، وتوسيع لمداها مما يجعل لها جذوراً في النفس يصعب اقتلاعها .

ثم يبيّن القرآن أن مقابلة الإساءة بالإحسان يترتب عليها بعض الصفات الإنسانية : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي وما يؤتى هذه الخصلة الشريفة إلّا الذين في طبيعتهم الصبر واحتمال المكروه ، ومجاهدة النفس ، ولا يظن الإنسان أنه بهذه المجاهدة للنفس والصبر على إساءة الغير يكون هو الخاسر ، بل هو الرابح ، كما ذكر الشطر الأخير من الآية : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي وما يؤتى هذه الخصلة الكريمة إلّا ذو نصيب عظيم من الخير ، وكمال النفس ، وحسن العاقبة .

ولما كانت النفس الإنسانية تراودها في كثير من الأحيان بعض الخواطر الشريرة التي تدفعها إلى العدول عن مقابلة الإساءة بالإحسان ، بل أكثر من ذلك مقابلة السيئة بأضعافها بداعي الانتقام والتشفي من المسيء ، هنا تأتي الآية الكريمة تبين أن هذه الخواطر هي من وسوسة الشيطان :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٦) .

فالنزغ : هو ما يوسوس به الشيطان إلى الإنسان ويتوصل به إلى فعل السوء والشر ، والاستعاذة بالله : هي الاستجارة به واللجوء إليه ، فالله يقول : وإن يوسوس لك الشيطان بالعدول عن مقابلة الإساءة بالإحسان إلى مقابلة الشر بالشر فالتجئ إلى الله من شره ليصرفه عنك ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ إنه سبحانه سميع لاستجارتك عليم بما في نفسك .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ
وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى
خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ۩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ
تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ
أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا
مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ

شرح المفردات

لا يسأمون : لا يملون التسبيح .

الأرض خاشعة : يابسة لم تنبت .

ربت : زادت ونمت .

يُلحدون في آياتنا : يميلون عن الحق بالنسبة إلى القرآن أو الدلائل على وحدانية الله .

كفروا بالذِّكْر : جحدوا بالقرآن .

عزيز : منيع لا يستطيع أحد أن ينال منه مطعناً .

أعجمياً : بغير لغة العرب .

ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ
﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ
عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ
وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا ءَاذَنَّٰكَ
مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا
مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ الْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ

شـرح المفـردَات

كلمة سبقت من ربك : هي وعده سبحانه بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة .

لقُضِي بينهم : لحكم بإهلاكهم في الدنيا .

مُريب : موجب للقلق والاضطراب .

عِلْمُ السَّاعة : عِلْمُ وقت قيام القيامة .

أكمامها : جمع كم وهو الغطاء الذي يكون على الثمرة قبل ظهورها .

آذنَّاكَ : أعلمناك .

وظنُّوا مالهم مِنْ محيصٍ : وأيقنوا ما لهم من مهرب .

لا يسأم : لا يملُّ .

دُعاء الخير : طلب المال الكثير والصحة والجاه .

ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

شرح المفردات

قنوط : ظاهر عليه آثار اليأس من الحزن والانكسار .

للحسنى : أي الجنة أو الكرامة ، واللام للتأكيد .

أعرض : ولّى ظهره وانصرف عن شكر ربه وطاعته .

ونأى بجانبه : استكبر عن الانقياد لأوامر الله .

دعاء عريض : دعاء كثير مستمر .

من أضل : لا أحدَ أشد ضلالاً .

شقاق : مخالفة لأمر الله .

الآفاق : جمع أُفُق وهو ما ظهر من نواحي السماء وأطراف الأرض .

شهيد : مُطَّلع .

مِرْية : شك .

تابع سورة فصلت

وبعد هذه الدعوة السامية إلى الإيمان بالله والعمل الصالح ، والسلوك الفاضل تأتي الآيات التالية لافتة أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله في المظاهر الطبيعية ، ومصححة لبعض العقائد الفاسدة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُم إيَّاهُ تَعْبُدُونَ. فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾ (٣٧ ، ٣٨) .

فالله تعالى يقول : ومن حجج الله على خلقه ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه تعاقب الليل والنهار ، وخلقه الشمس والقمر ، لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر ، فالله هو الذي خلقهما وهو الذي سخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم فهو أولى بالعبادة وأحق بالسجود ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ فإن استكبر ، يا محمد ، هؤلاء المشركون عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ﴿ فَالَّذِين عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ باللَّيلِ وَالنَّهارِ ﴾ فالملائكة الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادة الله بل ينزهونه عن النقص ويقدسونه ويصلّون له ليلاً ونهاراً ﴿ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾ وهم لا يفترون عن عبادته ، ولا يملون عن تنزيهه والصلاة له .

فالقرآن يعرض أدلة على وجود الخالق وعظيم قدرته جديرة بإمعان النظر وهي تعاقب الليل والنهار ووجود الشمس والقمر ، فالليل والنهار يحصلان من تأثير دوران الأرض حول نفسها ، هذا الدوران من الآيات الباهرة التي تدل على عظمة القدرة الإلّهية وذلك لما يتراءى للناظر من الدقة في دوران الأرض بحيث لا تخطئ مقدار ثانية واحدة .

والشمس هي الآية الكبرى على وجود خالق لها سخرها سبحانه لحياة الكائنات الأرضية ، هذه الشمس من أين تأتي بوقودها ؟ إن كانت تنفق من مختزن في باطنها لانخفضت درجة حرارتها عاماً بعد عام ، ولكن إذا نظرنا إلى الماضي السحيق لرأينا أن الشمس تعطي الأرض من الحرارة بمقدار لا يزيد ولا ينقص في المقدار التي يعيش فيها النبات والحيوان والإنسان ، لا بد إذن من وجود خالق يمكّن الشمس أن تعطي من الحرارة ما تفقد ، ويستمر في إمدادها بمقدار معين بما فيه حاجة الكائنات الحية .

هذا وإن الشمس تعتبر في طبيعة تكوينها وخصائصها . نجماً متوسط الحجم من بين ملايين ملايين النجوم المنتشرة في السماء ، وما نراها كبيرة إلّا لقربها منا ، وهناك نجوم أكبر من الشمس بملايين المرات ، فأي عاقل يقول إن الشمس خلقت شموساً أكبر منها ، وخلقت بلايين الشموس الموزعة في هذا الكون الهائل الرحيب ، وخلقت الكواكب ومنها كوكبنا الأرضي كما يدعي عبدة الشمس .

والقمر آية من آيات القدرة الإلّهية فهو يستمد نوره من الشمس ، هذا النور الذي فيه نفع لكثير من الكائنات الحية ، وتأمل اختلاف حجم القمر على أيام الشهر كيف جعله الله لمعرفة الناس حساب الأشهر والسنين ، فهل الصدفة أوجدت الشمس والقمر ؟ وهل التطور عبر ملايين السنين أوجدهما على هذه الخصائص المعهودة كما يدعي الماديون الملحدون ؟ اللهم لا يقول بذلك عاقل أبداً ، فالصدفة لا تأتي بأشياء قائمة على نهاية الحكمة والمنفعة المقصودة للناس والخلق .

أما قوله تعالى : ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ فهو أمر معروف ، فعبادة القمر انتشرت عند العرب الجنوبيين قبل الإسلام ، كما انتشرت عبادة

الشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب . . . وعبدها قوم آخرون من غير العرب الساميين مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين ، وقد أُشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين ، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس ، ومع ذلك عبدت في مدن يهوذا ، وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ « بيت شمس » .

فالسجود والعبادة لا تكون للشمس ولا للقمر بل هي لله وحده الذي خلقهن وخلق كل موجود : ﴿ وَاسْجُدوا لِلَّهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

ويتابع القرآن عرض الدلائل على وجود الله وقدرته فيلفت الأنظار إلى الأرض وما فيها من خصائص لحياة النباتات :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٩) .

أي من العلامات الدالة على وجود الله وقدرته أنك ـ أيها الإنسان ـ ترى الأرض ساكنة لم تنبت ، فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت بالنبات وازدادت ونمت ، إن الذي أحيا هذه الأرض الدارسة فأخرج منها النبات وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها بالمطر الذي أنزله عليها لقادر على أن يحيي الأموات من بني آدم بعد وفاتهم ، إنه سبحانه قادر على كل شيء .

هذه الآية جديرة بإمعان النظر لما فيها من الحقائق العلمية ، فقد دلت البحوث العلمية على أن الأرض فيها مسامٌ يتخللها الهواء ، وأن نزول الماء على الأرض يدفع الهواء ويحل محله ، وعند امتلاء مسامٌ الأرض بالماء تتحرك جزئيات الطين بقوة دفع الماء في المسام، ومن المعلوم أن الطين يتمدد بالماء ، وينكمش بالجفاف ، فالأرض عندما ينزل عليها الماء تتحرك

وتزداد في الحجم ، وقد أمكن قياس الأرض إذا ما أصابها الماء ، كما أمكن معرفة الزيادة في حجمها .

وبعد هذه الدلائل على وجود الله وصحة البعث تعود الآيات مهددة من يرفض هذه الدلائل ويحاول إلقاء الشبهات عليها :

﴿ إنَّ الَّذِين يُلْحِدُونَ في آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أفَمَن يُلْقَى في النَّارِ خَيْرٌ أمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . إنَّ الَّذين كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٤٠ ـ ٤٢) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ إنَّ الَّذينَ يُلْحِدُون في آيَاتِنَا ﴾ أي إن الذين يميلون عن الحق في حجج الله والأدلة التي وضعها في الكون التي تشهد بربوبيته أو يطعنون في صحة آيات القرآن ولا يؤمنون بالله الذي أنزلها ، هؤلاء : ﴿ لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فالله على علم تام بأمرهم وليس هناك غطاء يخفيهم عنه وإنهم لمحاسبون على موقفهم ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى في النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأتي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ هنا لا بد من التوقف أمام هذا الأسلوب القرآني الرائع حيث تعدل الآية عن مجابهة هؤلاء الملحدين بالعقاب الذي يستحقون إلى مخاطبة عقولهم كي يقارنوا بين مصير ومصير ، مصير من يلقى في نار جهنم ومصير من يأتي آمناً تزف إليه البشرى بجنات النعيم ، وهل هناك عاقل لا يميز بين المصيرين ولا يعرف أيهما خير . ثم يأتي التهديد الرباني للكافرين : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إنَّهُ بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ ﴾ والآية تبدأ بالأمر الذي ينطوي على التهديد ، أي بعد أن علمتم مصير كل من الفريقين فلا عذرَ لكم فاعملوا ما تريدون ونحن لكم بالمرصاد فالله بأعمالكم التي تعملونها خبير عليم لا يخفى عليه منها شيء .

﴿ إنَّ الَّذِين كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ المراد بالذِّكْرِ القرآن الكريم وسمي بذلك لأنه يذكّر الناس بالله ودينه ، والمعنى : إن الذين كفروا يجحدون بالقرآن الكريم ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ وإنه لكتاب أعزه الله لأنه كلامه ، وحفظه من الباطل ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يتطرق إليه الباطل في أي جهة من الجهات ولا يستطيع أعداؤه تغييره بكيدهم وتحريفه ﴿ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ هذا القرآن منزل من عند الله ، الحكيم في تدبيره لخلقه ، المحمود على نعمه عليهم .

ثم يبين الله بعض مواقف المشركين من النبي ﷺ ومن القرآن الذي أُنزل عليه :

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آياته ءأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِين لا يُؤْمِنُون في آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٤٣ ـ ٤٤) .

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً : إن الذي يقوله أعداؤك فيك من شتم وتكذيب شبيه بما قيل للرسل من قبلك من أعدائهم ، إن خالقك ومربيك لذو مغفرة للناس إذا تابوا ، وذو عقاب بالغ في الشدة إذا أصروا على كفرهم ، وفي الآية احتمال آخر في التفسير على معنى : إن الذي يقوله لك الله هو نفسه الذي قاله للرسل من قبلك من أن ربك ﴿ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا ﴾ والعَجَمُ : خلاف لسان العرب ، أي لو جعل الله القرآن بغير لغة العرب بناءً على طلب بعض المشركين حيث قالوا : هلاَّ نزل بلغة العجم ، ولكن ماذا سيكون موقف

المشركين لو نزل بلغة العجم ؟ يجيب القرآن على ذلك : ﴿ لَقَالُوا : لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي لقالوا على وجه التعنت والعناد : هلَّا بينت آياته بلغة العرب حتى نفهمه ، ثم لأضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ ءأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أي أقرآن أعجمي ، ولسان المشركين المنزل عليهم هذا القرآن هو عربي .

قد يراد بطلب المشركين نزول القرآن بغير اللغة العربية نزوله بلغة الكتب السماوية السابقة ما دامت كلها من عند الله ، فردت الآيات رداً منطقياً بأنه لو أُنزِلَ القرآن بلغة العجم ما كانوا يستطيعون فهمه واقتباس الهدى منه ، ولكان لهم في ذلك حجة لرفضهم القرآن .

فالقرآن أنزله الله بلسان عربي في أعلى درجات الفصاحة ليتقرر إعجازه إذ كان العرب وخاصة عند نزول القرآن أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً ، وإذا عجزوا عن الإتيان بمثله كان من أقوى الأدلة على أنه من عند الله ، ويفهم من هذا أن القرآن إذا نُقِلَ إلى اللغات الأخرى لم يكن قرآناً بل يكون شرحاً وتفسيراً لمعناه حسب اجتهاد المترجم ، فالترجمة تفقد القرآن إعجازه اللغوي الذي لا يظهر إلاّ باللغة العربية التي نزل بها .

وبعد هذا البيان يأتي الجواب الرباني عن ميزات القرآن التي يجب أن تُقابل بالقبول لا بالرفض : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذين آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن هذا القرآن هو هدى للمؤمنين من الضلالة ، وشفاء لما في النفوس من مرض الكفر وسائر الأمراض الاجتماعية ﴿ والَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ والذين لا يصدقون بهذا القرآن في آذانهم صمم عن سماعه ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ فهم كالعميان لا ينظرون إلى ما في القرآن من الهدى والحقائق التي تسعدهم ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ هذه الآية تمثيل في عدم قبولهم دعوة الإسلام ورفضهم الاستماع للقرآن كمن يُنادي بهم من

مسافة نائية بعيدة فلا يكاد يسمع صوته ، ولا يفهم قوله لبعد المسافة .

ثم يبين القرآن أن الاختلاف في شأن الكتب الإلٓهية والشك فيها هو عادة قديمة جرت عليها الأمم السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . مَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٤٥ ـ ٤٦) .

فالله سبحانه يخبر نبيه محمداً ﷺ بأن الأذى الذي يصيبه من قومه ليس منفرداً به وأن معارضة الكفار ليست خاصة به وحده بل هذا شأن كل الأنبياء قبله ، فلقد أعطى سبحانه موسى التوراة فقبلها بعضهم وردها آخرون ، فكذلك أعطى الله سبحانه محمداً هذا القرآن فقبله بعضهم ورفضه آخرون ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي ولولا ما سبق في قضاء الله وحكمه فيهم من تأخير عذابهم إلى يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لعجل لهم العذاب في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ وإن هؤلاء الكفار لفي شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ فمن عمل بطاعة الله في هذه الدنيا فأتمر بأمره وانتهى عما نهاه عنه فلنفسه عمل ذلك العمل الصالح لأنه يجازى عليه الجزاء الحسن بدخول الجنة ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ومن عمل سيئاً في الدنيا فعلى نفسه جنى لأنه أكسبها بذلك سخط الله وعقابه الأليم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ والله لا يعاقب أحداً إلاّ بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلاّ بعد قيام الحجة عليه وإرسال رسول من عنده ، فالله سبحانه نفى الظلم عن نفسه فهو الحكم العدل لا يرضى الظلم ويكره الظالمين .

ثم تأتي الآيات التالية وفيها بيان بشمول علم الله لكل شيء فلا يخفى

عليه أي عمل يقترفه الإنسان في دنياه :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ . وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَالَهُم مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٤٧ ، ٤٨) .

فالله سبحانه يجيب على أسئلة السائلين عن موعد القيامة ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ فالساعة هي القيامة فالله سبحانه يعلم موعد قيامها لا يعلمها أحد غيره ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أي أن خروج كل ثمرة من الثمرات من غلافها ووعائها التي كانت فيه مستترة مندرج في علم الله كذلك . وعلم الله محيط بتوالد البشر : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أي إن كل أنثى وما تحمل من جنين في بطنها وتلده فهو داخل في علم الله .

ثم يبين القرآن أحوال المشركين يوم القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِم أَيْنَ شركائي ﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين نداء فيه تقريع وتهكم بهم : أين شركائي الذين زعمتم أنهم آلهة ؟ أين هم الآن لينقذوكم من العذاب ﴿ قَالُوا : آذَنَّاكَ ﴾ آذن بمعنى أعلم ، أي قالوا : أعلمناك أو أسمعناك ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْل ﴾ أي وغاب عن هؤلاء المشركين ما كانوا يعبدون في الدنيا من الآلهة المزعومة ﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي وأيقنوا حينئذٍ أنهم لا مهرب لهم من عذاب الله .

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن طبيعة بعض الناس أمام ما يصادفهم من خير أو شر ، وعن موقفهم تجاه القيامة والحساب والجزاء :

﴿ لا يَسْأَمُ الإنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيئُوسٌ قَنُوطٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذا لي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إلَى رَبِّي إنَّ لي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهم مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ (٤٩ ـ ٥١) .

فالله سبحانه يقول : ﴿ لا يَسْأَمُ الإنْسَانُ ﴾ يسأم : يمل ويفتر ، والإنسان المراد به هنا الكافر ، والمعنى : لا يمل الكافر ولا يفتر ﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ من طلب الخير الدنيوي من مال وعافية وسعة في النعمة ﴿ وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ وإن أصابه البلاء أو المرض أو الفقر ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ واليأس قطع الرجاء من رحمة الله ، والقنوط ظهور آثاره على الوجه ، وهذان اللفظان من الألفاظ المترادفة جمع بينهما للمبالغة في قطع الرجاء ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ أي ولئن نحن كشفنا عن هذا الكافر ما أصابه من سقم في نفسه ، وشدة في معيشته رحمة منا ، فوهبنا له العافية بعد السقم ، ورزقناه المال من بعد الضيق ووسعنا عليه في معيشته ، فإنه في هذه الحالة يأتي بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة :

أولها : انه يقول : ﴿ هَذَا لي ﴾ أي هذا حقي استحقه لِما لِيَ من الفضل والعمل لا تفضل من الله ، وهذاالكلام فيه من المغالطة والغرور الشيء الكثير لأنه يتمتع برزق الله الذي رزقه إياه ، وبالنعمة التي تفضل الله بها عليه .

ثانيها : أن يقول : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي وما أحسب أن تقوم القيامة بعد الممات ، يقول هذا لأنه شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة من الآخرة .

ثالثها : أن يقول : ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أي ولئن كان حقاً أن هناك بعثاً وجزاء فإن لي عنده الحالة الحسنى من الكرامة .

وبعد أن حكى الله تعالى عنه ذلك قال : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِين كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي فلنخبرن هؤلاء الكافرين يوم القيامة بما عملوا في دنياهم من المعاصي ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وسنجازيهم على موقفهم هذا بعذاب شديد الوقع لا يمكنهم التخلص منه .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي وإذا أنعم الله على الكافر بما يريحه ويحسّن حاله ويرفه عيشه ، أعرض عن شكر الله وطاعته واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ وإذا أصابه المكروه من ضر وفقر ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ فذو دعاء كثير ، فمن طبع الكافر أن يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء .

وأمام تكذيب الكفار لكتاب الله يتوجه القرآن إليهم بسؤال يحرك فيهم العقل والمنطق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعيدٍ ﴾ (٥٢) .

أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم جحدتم به ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّن هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعيدٍ ﴾ أي لا أحد أضل من الذي هو في خلاف للحق بعيد عن الرشاد .

ثم يختم الله هذه السورة ببرهان جلي يشهد بوحدانية الله وعظيم قدرته ستتكشف حقائقه للأجيال المقبلة :

﴿ سَنُرِيهِم آيَاتِنَا[1] فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِم أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ (٥٣ ـ ٥٤) .

فالله سبحانه يقول للمنكرين لوحدانيته أو وجوده بأنه سيريهم ـ أي في المستقبل ـ العلامات الدالة على قدرته في نواحي السماء والأرض وفي النفس الإنسانية .

هذه الحقيقة المعلنة هي من أعظم الدلائل على أن القرآن وحي إلّهي وأن محمداً رسول الله حقاً . ففي وقت نزول القرآن لم يكن قد اكتشف المرقب « التلسكوب » الذي كشف عن عجائب السماء الشيء الكثير وعظمة القدرة الإلّهية .

فقبل اكتشاف المرقب كان الناس يعتقدون أن النجوم ليست سوى مصابيح صغيرة ، وكان عدد النجوم التي يمكن رؤ يتها من على سطح الأرض بالعين المجردة لا يزيد عن ٦ آلاف نجم ، ولما كنا لا نرى سوى نصف الكرة السماوية تقريباً فمن البديهي أن لا نشاهد أكثر من نصف هذا العدد .

وأول من صنع المرقب غاليلو عام ١٦٠٩م ثم تطورت صناعته منذ ذلك الحين مما مكّن العلماء بواسطته من رؤ ية المزيد من الكواكب والنجوم .

فبواسطة المرقب تبدّى لنا أن الشمس وما نراه من نجوم هي تابعة لمجرة واحدة يطلق عليها اسم درب التبانة وهي تتألف من مجموعات شتى من النجوم قدرت بنحو ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم ، وعدد المجرات التي

---

(١) آياتنا : الآيات جمع آية وهي العلامة الواضحة وتأتي بمعنى المعجزة ، وقد سمى الله ما خلقه في الكون آيات لأنها علامات على وجوده وقدرته وحكمته .

تم اكتشافها بواسطة مرقب جبل بالومار بكاليفورنيا بلغ حوالي ١٠٠٠ مليون مجرة بكل منها في المتوسط ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم تقريباً ، وأنه يوجد في الكون أضعاف ما رآه العلماء من مجرات .

أما آيات الله في آفاق الأرض فإنها لم تظهر على حقيقتها إلاّ بعد اختراع سبل المواصلات الحديثة التي ربطت بين أقطار الأرض وبينت للإنسان ما كان مجهولاً لديه ، وبعد هذه الحضارة التي بلغها في هذا العصر حيث استكشف الإنسان أسرار عوالم الأرض الجيولوجية وعالم النبات والحيوان والحشرات والطير وغير ذلك مما يشهد بوجود خالق حكيم .

وبعد أن بيّن الله أنه سيريهم آياته في الآفاق بيّن بعد ذلك بأنه سيريهم آياته ﴿ في أَنْفُسِهِم ﴾ أي في النفس الإنسانية .

وقد كشف الطب الحديث أن في جسم الإنسان من الأجهزة المتعددة المتشعبة ما يحتاج كل جهاز فيه إلى دراسات مستفيضة تجعل الإنسان يقف أمامها مبهوراً مندهشاً ، فلا ندري من أين نبدأ ولا عن أي جهاز من أجهزة الجسم نتحدث وما فيها من أسرار مدهشة وحِكَم .

هل نتحدث عن بدء تكوين الإنسان في الرحم بالتقاء إحدى الحيوانات المنوية[١] ببويضة الأنثى ثم تدرجه في التكوين إلى أن يصبح بشراً سويّاً ؟

---

(١) تفرز خصية الرجل مئات الملايين من الحيوانات المنوية في كل دفقة مني وقد قدرت بـ ١٠٠ مليون حيوان منوي في السنتمتر المكعب وكل حيوان منوي له رأس مصفح مدبب وله عنق صغير وله ذيل يتحرك بواسطته . ورأس الحيوان المنوي يحتوي على أسرار الوراثة كاملة ينقلها الأب إلى الابن والبنت على هيئة ٢٣ جسيماً ملوناً . وأحد هذه الحيوانات المنوية فقط يفلح في اختراق بويضة الأنثى التي تحتوي أيضاً على ٢٣ من الصبغيات الوراثية وبالتقاء الحيوان المنوي ببويضة الأنثى يبدأ تكوين الإنسان .

أم نتحدث عن قلب الإنسان ووظيفته المعجزة[١] ؟ أم نتحدث عن شرايين الإنسان والأوردة التي تنقل الدم إلى سائر أعضاء الإنسان وأطرافه ؟ هل نتحدث عن عظام الإنسان وما فيها من تنوع وَحِكَم ؟ أم نتحدث عن عضلات الإنسان المنتشرة من أعلى الرأس إلى أسفل القدم ؟ هل نتحدث عن الجهاز العصبي واللمفاوي ؟ أم نتحدث عن غدد الإنسان ووظيفتها ؟ هل نتحدث عن سمع الإنسان وبصره وتكوين كل من الأذن والعين ؟ أم نتحدث عن حاسة الشم والذوق واللمس ؟ هل نتحدث عن الجهاز الهضمي وما فيه من معدة وكبد ومرارة وأمعاء دقيقة وغليظة ؟ أم نتحدث عن الجهاز البولي والكليتين ؟ هل نتحدث عن الجهاز التناسلي الذي يختلف فيه الرجل عن المرأة ؟ أم نتحدث عن جهاز التنفس وكيف يتوقف عليه تنقية الدم وحياة الإنسان . . هل نتحدث عن مخ[٢] الإنسان وتكوينه وعظمة إبداعه ؟ أم نتحدث عن تركيب أسنان الإنسان وتنوعها حسب الوظيفة المتوخاة منها . . أم عن أظافر الإنسان وشعره وجلده ، كل هذه وغيرها لو شرحت وبينت أسرارها لاقتضى ذلك عشرات المجلدات الضخمة على يد عشرات الأخصائيين في كل فرع من فروع علم الطب .

---

(١) قلب الإنسان أعجب وأتقن المضخات يعمل بدون توقف منذ الأسبوع الرابع من وقت تلقيح الأنثى وحتى موته ، وينبض عادة ما بين ٦٠ إلى ١٠٠ ضربة في الدقيقة ويضخ ٥ ليترات دم في الدقيقة ، وهذه المضخة المعجزة توصل الدم إلى شبكة من الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية التي إذا وضعت جنباً إلى جنب في خط مستقيم فإن طولها يتجاوز ستين الف ميل .

(٢) الدماغ آلة العقل عدد خلاياه العصبية اثنا عشر ملياراً تقريباً وفي كل ثانية تفكير أو قراءة تدخل شبكة خلايا يقرب تعدادها من مائة مليار خلية في كل منها يحصل ما يقرب من خمسة عشر ألف تفاعل كيميائي وكهربائي في الثانية ولو أراد العلماء تقليد هذه الصنعة الإلَهية بآلة كمبيوتر تعمل كالدماغ للزم بناء مؤلف من عشر طبقات مشاد على مساحة ٧٠٠ الف كلم^2 علماً أن برمجة الجزء الرئيسي منه فقط تستغرق عدة سنين .

هذا في جانب الجسم الإنساني أما في جانب النفس الإنسانية جانب الشعور والوجدان ، جانب العقل الواعي واللاواعي ، هل نتكلم عن حب الإنسان للمعرفة واستكشافه للمجهول أم نتكلم عن ما في نفسه من شعور وعاطفة ، وألم ولذة ، وحب وبغض ، وحزن وسرور ، وطموح وخيال ، وضمير ووجدان ، وغرائز شتى ، أم نتكلم عما أودع في فطرة الإنسان من التوجه إلى الخالق بالعبادة ، واللجوء إليه عند الشدائد ، ألا يكفي هذا كله دلالة على عظمة الخالق الذي أبدع الإنسان على هذه الميزات الفريدة التي تشهد بوجود الخالق ووحدانيته وعظمته ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

ثم يتابع القرآن قوله بعد لفت الأنظار إلى آيات الله في الكون : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّن لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أي حتى يتبين لهم أن القرآن من عند الله ، وأن وجود الله ووحدانيته لا مجال للشك فيها ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي أو لم يكن الله سبحانه كافياً في أنه على كل شيء شهيد . والاستفهام للتقرير ، وهو سبحانه يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عن ربه ﴿ أَلا إِنَّهُم فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِم ﴾ أي إن المشركين في شك عظيم من حصول البعث والجزاء في الآخرة لا يستعدون لها بالعمل الصالح ، ولا يحاسبون أنفسهم على ما اقترفوا من منكرات ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ ألا فانتبهوا أيها الكفار فإنه تعالى عالم بجميع الأعمال التي تعملونها بجملتها وبتفاصيلها ، بظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية وهو مجازيكم على كفركم وآثامكم بالعذاب الذي تستحقونه .

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي .
لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .
فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .
تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .
روح المعاني للألوسي .
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .
صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني .

كلمة شكر

أخص بالشكر جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت لما أسدته مطابعها والعاملون عليها من جهد في تنضيد أحرف هذا الكتاب وأخص بالشكر أيضاً الصديق السيد علي موسى على ما بذله من عناية وتضحية في طبع هذا الكتاب في مطبعة العلوم .

الفهرس

اسم السورة	رقم الصفحة
سُورَةُ الزُّمَر	٥
سُورَةُ غَافِر	٦١
سُورَةُ فُصِّلَت	١١٧



هَذَا التَّفْسِيْرُ

- يَعرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .
- يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُّنّة النبويّة وفقه اللغَة .
- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .
- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون:
دَارُ العِلمِ للمَلايِين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥